

النموذج الثالث

نموذج الالتباس أو الخلط بين الطعن والإنصاف

وفيه يجتمع جانب هادف يسير على طريق التفاهم، وجانب غامض وخفى ذو أهداف مسيئة، ومساعي مذمومة واستعلاء على الطرف الإسلامى، من حيث إنه يدور حول المساعي المبذولة من الأطراف المعنية بالعمل على التقارب والفهم المشترك، لما فيه المصلحة والاتفاق على قواسم مشتركة، ومخاطبة القضايا الشائكة والتصدى لما يؤدي إلى القطعية ويثير العداوة، ويعوق السلام والتعايش، ويشيع أجواء التوتر والكراهية.

على هذا الجانب نلمس جهودا متنامية فى هذا الاتجاه، وهى جهود جديرة بالتشجيع بإفساح المجال أمامها، وتفعيل ما يصدر عنها مهما كان قليلا، فهو على قلته، يعمل على تصحيح الصورة الغلط، ويزيل الجهالة ويغرس الفهم الصحيح، ويحسن فى العلاقات، وينفى أجواء التوتر، ويمضى قدما نحو مزيد من التعايش والسلام.

١ - منتدى إسلامى كاثوليكي يدعو إلى حرية العقيدة والالتزام المشترك بإقامة عالم أكثر عدلا.

فقد انعقد المنتدى الكاثوليكي الإسلامى فى الفاتيكان، حول موضوع محبة الرب ومحبة الآخر، وهو الأول بين أتباع الدينين على هذا

الطريق ، وضم ٥٨ مندوبا جاءوا من بلدان مختلفة في أرجاء العالم ، وقد اعتبره البابا بنديكت السادس عشر بأنه : خطوة إضافية على طريق فهم أفضل بين المسلمين والمسيحيين.^(١)

وقد ناقش المنتدى مشكلة الاضطهاد والعنف والإرهاب ، ولا سيما ذلك الذى يرتكب باسم الدين. كما تطرق إلى بعض المسائل الدينية والأخلاقية والاجتماعية.

وفى سياق الحرص على التنبيه على بعض المسائل التى تشكل حساسية خاصة تؤرق العلاقات بين أتباع الأديان ، شدد البابا على احترام حرية المعتقد للجميع ، وأينما كان من منطلق أن هناك بعض الأقليات المسيحية تتعرض لأعمال عنف أو تدفع للنزوح فى الكثير من الدول التى تكون فيها الغالبية مسلمة.

فيما قال الأستاذ الجامعى الأمريكى الكاثوليكي الفرنسى جوزيف مايلا : لقد بحثنا فى العبارات التى تثير الاستياء مثل كره الإسلام. فى الوقت الذى حذر فيه الأستاذ الجامعى الأمريكى المسلم سيد نصر من تبشير عدائى يشن باسم الحرية.

وقد أسفر المنتدى عن إعلان مشترك دعا إلى : احترام الفرد وخياراته على صعيد المعتقد والدين ، وحق الأفراد والمجموعات فى ممارسة دينهم علنا ومنفردين.

(1) [Http: //www.egypt.com/news-details.aspx?news=5658](http://www.egypt.com/news-details.aspx?news=5658).

كما دعا المسئولون الدينيون في إعلانهم: كل المؤمنين إلى العمل على قيام نظام مالى أخلاقى تأخذ الضوابط التى تحكمه فى الاعتبار وضع الفقراء والمحرومين والدول المدينة.

وأدان الإعلان الاضطهاد والعنف والإرهاب الذى يرتكب باسم الدين. يأتي هذا المنتدى ليزيل الآثار العالقة من جراء خطاب البابا فى إحدى الجامعات الألمانية عام ٢٠٠٦م، والذى ربط فيه بين الإسلام والعنف، ويعمل على مزيد من الفهم، وإقامة جسور مشتركة من أجل إقامة عالم أفضل بين المسلمين والمسيحيين الكاثوليك، وهم الطائفة الأكثر عددا عما عداها من الطوائف المسيحية الأخرى.

لكن واقع الإعلان المشترك يكشف عن رغبة حثيثة تجاه تغيير مواقف عقائدية فى الدين الإسلامى تحت ستار حرية المعتقد، وحق الاختيار، وهو إن كان صحيحا فى مبدئى العقيدة، واعتناق الدين الذى يؤمن به، إلا أنه لا يستقيم بعد الإيمان بالدين والانخراط فى تعاليمه وبين أصحابه، لما فيه من التلاعب بالإسلام وبث الفتنة فى مجتمع المسلمين، ويلقى بظلال من الشك حول قدسية الدين والضمير الإيمانى، ويورث الخيانة للمبادئ والقيم، والانفلات من ربة الإسلام ونظام المجتمع، والتشكيك فى حقائق الدين وكونه دينا إلهيا.

وقد حذر الإسلام من هذا الصنيع بقوله تعالى: ﴿ وَقَالَتْ طَآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَهُ النَّهَارِ وَكُفِّرُوا ءَاخِرَهُ ۗ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٧٢].

وخطورة قبول ما دعا إليه إعلان المنتدى فى هذا الصدد أنه ببغى تقنين التبشير ضد الإسلام، وغزو الإسلام فى عقر داره وتحرير المؤمنين بالإسلام على الانخلاع عن دينهم والانقلاب عليه تحت ستار حرية المعتقد والاختيار.

والأجدر فى هذا السياق دعوة المؤمنين بالأديان إلى الحفاظ على عقائدهم والتمكين لهم فى ممارسة شعائر دينهم، وحماية حقهم فى ذلك.

٢ - محادثات بين السعودية والفاتيكان حول بناء كنائس

تنطلق فى الآونة الراهنة مباحثات بين السعودية والفاتيكان بغرض بناء أول كنيسة فى بلد مهد الإسلام، وقال الأسقف بول منجد الهاشم وهو ممثل البابا بنديكت السادس عشر فى منطقة الشرق الأوسط: أن المباحثات انطلقت قبل أسابيع قليلة.

ويذكر أنه لا توجد علاقات دبلوماسية رسمية بين السعودية والفاتيكان.

وتجدر الإشارة إلى أنه تم افتتاح أول كنيسة كاثوليكية فى الدوحة العاصمة القطرية، وذلك خلال قداس دينى حضره نحو ١٥ ألف شخص، وحضر مراسم افتتاحه ممثل بابا الفاتيكان الأسقف بول الهاشم الذى قال: إنه يأمل فى إقامة كنيسة قريباً فى السعودية، التى يعيش فيها حوالى ١,٥ مليون مسيحي لا يسمح لهم بممارسة طقوسهم

التعبودية علانية. وهم يعيشون في السعودية والعديد منهم فنيون وعاملون بالمملكة^(١).

ويؤسس الفاتيكان مطلبه بإقامة كنائس بالسعودية، على أساس أن المسلمين الموجودين في أوروبا أحرار في ممارسة طقوسهم الدينية، الأمر الذى يجعل بناء الكنائس في المملكة من باب المعاملة بالمثل وكمظهر من مظاهر احترام الديانة المسيحية والمسيحيين، وأن إقامة الكنائس في المملكة هو شرط لإقامة علاقات دبلوماسية.

وفى العادة تتكرر الانتقادات والشكاوى من الممارسات الدينية فى السعودية وغيرها من الدول الإسلامية، وأنها ضد الحرية الدينية فيما تتخذه من إجراءات صارمة ضد التجمعات المسيحية، وبالنسبة للسعودية فإن ممارسة العبادة وإظهار الرموز الدينية مثل الصلبان غير مسموح به.

وحقيق فى هذا السياق التذكير بأن ثمة حديثاً نبوياً حول ممارسة الشعائر الدينية فى قول الرسول ﷺ [لا يجتمع دينان فى جزيرة العرب]. وينبغى القول أن السعودية بصفة خاصة مكانة متفردة مردها إلى كونها بلد الحرمين الشريفين، وأنها قبلة المسلمين ومهد الإسلام، وأن الرحال تشد إلى موضعين فيها المسجد الحرام والمسجد النبوى، مما يضىفى على أرضها قدسية حقة فى هذا الخصوص.

(1) [Http: //news.bbc.com.uk/go/pr.fr-h/arabic/middle_east_news](http://news.bbc.com.uk/go/pr.fr-h/arabic/middle_east_news).

ولئن كانت الفاتيكان تتمثل ببناء المساجد في أوروبا للمسلمين هناك ، بما يستتبعه من بناء الكنائس في السعودية في نطاق التبادلية ، فهذا قد يجد الرد عليه في أن الفاتيكان لا تقبل ببناء مسجد للمسلمين على أرضها ، في الوقت الذي من المعلوم للكافة ببناء كنائس المسيحيين في الدول العربية والإسلامية ، وأنهم يمكنون من أداء شعائر دينهم في هذه البلدان ، وهو ما يؤكد على الحرية الدينية فيها وحق المسيحيين وغيرهم في إقامة شعائر دينهم داخل الأوطان الإسلامية ، وحماية حقهم في هذا الخصوص .

٣ - مهاجمة مسلسل يقدم صورة مشرقة عن المسلمين

عرض مسلسل تليفزيوني صورة مضيئة عن المسلمين ، إذ يظهر تضامن المسلمين مع الشعب الأمريكي في محاربة الإرهاب . وأكدت شركة فوكس المنتجة للمسلسل أنه - أي المسلسل - يحاول أن يظهر حقيقة المسلمين وأنهم ليسوا جميعا إرهابيين .

كما جاء على لسان بطل المسلسل كريفر تترلند قوله : "بينما الإرهاب واضح وجلى كأحد أخطر التحديات التي تواجه أمريكا والعالم ، فمن الضروري إدراك أن المسلمين الأمريكيين يقفون بقوة بجوار إخوانهم في شجب وإدانة كل أشكال الإرهاب"^(١) .

هذا الجانب من المسلسل يرسم صورة حقيقية تكشف عن جوهر الإسلام في دعوته إلى الأمن والسكينة والتعايش في سلام مع المخالفين ،

(١) [Http://www.alarabia.net/save_print.php=18nont_id=10439](http://www.alarabia.net/save_print.php=18nont_id=10439)

ونبذة للعنف والإرهاب وترويع الآمنين. وهذا ينطبق على المسلمين الذين عليهم أن يلتزموا هذا النهج في تعاملهم مع الآخر، وهو المسلك الذي اتبعه المسلمون عبر عصور الإسلام، وفي ظلال الفهم لطبيعة الإسلام، ومنهجه في علاقته مع الغير.

ومع هذا النظر الصحيح لصورة المسلمين في الغرب وفي أمريكا فإن بعض الكتاب مثل ديبى سيشلسل هاجمت المسلسل ووصفته بأنه من أكثر العروض إثارة من حيث الحركة والمغامرة والسخرية وقالت: «إن كل الإرهابيين لهم علاقة بالإسلام، واعتبرت أن شركة فوكس المنتجة للمسلسل قد تورطت في إنتاجه، وأن ذلك يعد انتهاكا للمحظور وطالبت القائمين على الشركة بالندم على ارتكاب هذه الخطيئة».

ومنشأ الغرابة في هذا النقد والهجوم أنه غير مبرر ولا محل له، فإن المسلمين الأمريكيان يدركون مصلحة البلاد التي يعيشون فيها، وحريصون على الحفاظ على الأمن والأمان فيها، ولا يقدمون على ما يخل بهذا الأمن أو يعكر صفوه. ولا يخل بهذه الصورة أن توجد بعض الجماعات من خوارج المسلمين ممن اتخذوا منهج العنف سبيلا لرفض الأوضاع الخاطئة والمعايير المزدوجة ضد الإسلام والمسلمين، على سند من أن هناك سبلا أخرى للتعبير عن السخط والاحتجاج وتغيير الأوضاع بالطرق المشروعة دون تشويه الإسلام واتخاذ المتربصين به ذلك ذريعة للتطاول عليه والإساءة إليه، واستنفاد أعداء الإسلام لتأييد مدعاهم بأن الإسلام دين الكراهية ورفض الآخر.

ويبقى دوما الإعلان الإسلامي الذي يكرس نداء التعايش والتفاهم
الوارد في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ
شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [سورة الحجرات: الآية ١٣]. للقول بإن الإسلام
دين ينبذ الإرهاب وأنه دين أمن وسلام.

* * *

فتاوى الفضائيات بين التهوين والتهويل

انضم الافتاء فى الفضائيات إلى قائمة الأمراض التى تعانى منها الأمة وتوهن الإسلام، وتضعف عافيته، فقد شوهدت سماحته، وروجت للأباطيل من حوله، فى وقت صوبت فيه السهام إلى هذا الدين من الأعداء المجتمعين عليه هنا وهناك، يضمرون له السوء والنقيصة، فهم يعلمون أن الإسلام هو مصدر قوة الأمة، وباعث حيويتها، ومفجر الطاقات فيها، وأساس بقائها عزيزة مستقلة فى شخصيتها لا تخضع للإدارة الإلهية، ولا تستقيم مسيراتها إلا بالاعتصام بدين الإسلام وتنفيذ قوانينه وشريعته كشرط لازم لنهضتها وعلو مكانتها.

وكان من مقتضى هذه الحقيقة الناصعة أن تتوافر عقول الأمة نحو إبراز جوهر الدين الإسلامى، واستلهام مقاصده، وبعث حضارته المشيدة على حقائق العلم والدين، وأن تصاغ حياة المسلم وفق هذه الرؤية الخلاقة للإسلام المستمدة من فقه النصوص، ومعطيات الواقع فى أبعاده الكلية والجزئية التى استوعبت الحياة على اتساعها، وقادت الأمم إلى رشدتها وهدت البشر إلى أقوم الطرق وأحسنها: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [سورة الإسراء: الآية ٩].

وكان جديراً أن يقوم بهذه المهمة أصحاب الرأى والعقول الراجحة ورائدهم فى هذا المسلك، مسيرة سلفهم الصالح الذى يتقن أن الفتوى

توقيع عن رب العالمين، وبلاغ عن سنة رسوله الكريم وأن الفقه هو الرخصة من ثقة، وأن الإفتاء هو ملكة لا يقتدر عليها إلا من حاز أصول العلم، وتمكن من ناصية الفهم العميق لطرق استمداد الأحكام من النصوص في القرآن والسنة، وأن يكون للمفتي كما يقول ابن القيم^(١): «علم وحلم ووقار وسكينة، وأن يكون قويا على ما هو فيه وعلى معرفته، لديه الكفاية، بصيراً بأحوال الناس، وأن تكون له نية بأن يريد بها وجه الله ورضاه والقرب منه وما عنده، وليس مريداً بها وجه المخلوق ورجاء منفعته، وما يناله منه تخويفاً وطمعاً، فهذه النية هي رأس الأمر وعموده وأساسه الذى يبني عليه، فإن لم يكن عنده هذه النية لم يكن عليه نور ولا على كلامه نور، تجد ذلك فى رجلين يفتى كل منهما بالفتوى الواحدة وبينهما فى الفضل والثواب أعظم مما بين المشرق والمغرب، هذا يفتى لتكون كلمة الله هى العليا ودينه هو الظاهر ورسوله هو المطاع، وذلك يفتى ليكون قوله هو المسموع وهو المشار إليه، وجاهه هو القائم، سواء وافق الكتاب والسنة أو خالفهما».

هذا تصوير لواقع تشهد عليه فضائيات هذا العصر، فقد انبرى نفر من أذعياء العلم، للإعلام بحكم الله فى أمور ابتدعوها، وآراء زورواها، وغايات قدروها تحقيقاً لمآرب شخصية، وحاجات نفعية، وما ظنوا أنهم بصنيعهم المعوجّ ذلك قد أساءوا إلى صحيح الدين، وانحرفوا عن الصراط القويم، وخلطوا الحلال بالحرام والسنة بالبدعة والصحيح بالمكذوب، واقترفوا الذنب العظيم، فقد تقوّلوا على الله بغير علم، وانزلقوا إلى

(١) أعلام الموقعين ج ٤، ص ١٩٩.

المعاصى ، وتورطوا فى الحرام وصدق فيهم قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنَقْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ [سورة النحل : الآية ١١٦].

لقد أحدثت هذه الفتاوى فى الأمة صدعا كبيرا ، بسبب المسلك الخاطئ الذى اتبعوه وبما روجوا له من أحكام متضاربة ، وأقوال متعارضة ، أحدثت حيرة وبلبلة بين العامة ، وبسطاء الناس ، بل وصيرت الشريعة المستقيمة هوى متبعاً نتيجة نظرة ظلامية ضيقة الأفق جعلت حياة الناس كثيبة معتمة لا ترى فيها شعاعا من نور ، بتشديدهم على الناس ، وجمودهم على نصوص لم يتعقلوا معناها ، وتفسيرات لم يفقهوا مرجعها ووقعوا فى آفة التنطع : ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [سورة محمد : الآية ٢٤]. حتى لقد صيروا هذا الدين السمح الرحيم بالخلق عقبة كؤودا ، فقد حصروه فى رسوم وطقوس يقف حجر عثرة فى طريق التدين السليم ، والحياة السوية التى تجعل حياة المسلم للدين والدنيا ، لله والوطن ، وللمؤمنين وغير المؤمنين ، وأقاموا خصومة زائفة بين الإسلام والعصر ، والدين والتقدم ، والتعايش مع الآخر ، والإسلام من كل ذلك براء.

لقد أشاعت هذه النوعية من الفتاوى مفاهيم مغلوطة عن الإسلام وأظهرته كدين يدير ظهره للحضارة والمدنية والثقافة المستنيرة بسبب ما تتضمنه تلك الفتاوى من الخرافات والجهالة والتخبط والعجز والجمود ، حتى يحسب الباحث عن الإسلام أن هذا الدين يستعصى على التطور

ويبعث في النفس الجهامة والعبوس واليأس وما درى هؤلاء المتشددون أنهم يطعنون في الإسلام من حيث لا يظنون، وأنهم كتيبة من المنفريين الذين يشوهون الإسلام ويصدون عنه الناس وأن مآلهم الويل والهلاك، بحسب ما أخبر به الرسول ﷺ: «هلك المتنطعون» - المتشددون - قالها ثلاثا. وقوله: «إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق، فإن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه».

والغريب في الأمر أن هؤلاء الناس قد نَصَبُوا أنفسهم أوصياء على الإسلام وقدموه للناس على أساس أنهم أنصاره المخلصين الذين يذودون عنه، ويصدون عنه الأباطيل، وهم بهذا المسلك لهم الحق وكل الحق في أن يحتكروا فهم الدين، ويتقولوا عليه ما شاء لهم القول، مع أن بضاعتهم مزجاة، ولا رسوخ لهم في العلم، فهم لا حظ لهم من استحقاقات المفتى، فهو العارف بكتاب الله نضا واستنباطا، العالم بالسنة على مقتضى الاستقلال، البصير بمواقع الإجماع من أقوال العلماء السابقين، المتحلى بالقدرة على القياس، وإلحاق الشبيه بنظيره، ومحدثات الوقائع بنصوص الشرع وأصوله، والفقيه ذو الدراية بترتيب الأدلة، المتمسك بالورع والتقوى، وعلى الجملة فإن المفتى كما يقول إمام الحرمين^(١): «هو المتمكن من إدراك أحكام الوقائع على يسر من غير معاناة تعلم». ولا تقف فوضى الفتاوى عبر الفضائيات على هذا الصنف من الناس، وإنما يؤازرهم ويعمق الاضطراب والخلل صنف آخر من المفرطين في الدين الذين تعدوا حدوده، واستباحوا حرامه وضيعوا معالمه تحت

(١) غياث الأمم ص ٢٨٩.

مسميات براقية، وشعارات رنانة وسندهم على مدعاهم أنهم مجددون ومبدعون فى الدين، وأن حاجات العصر ومقتضيات الحداثة وأنماط الحياة الحديثة تحتم هذا التجديد، ليكون ما جَدَّ للناس من الحوادث، وما طرأ لهم من المستجدات والمعضلات مما يندرج فى الدين، ويدور فى فلكه، ويلتف تحت عباءته، ولا حرج وفق هذا النظر، أن يستحل المسلم الحرام، وأن يُؤوّل النص على غير موضعه، وأن ينحرف بالثابت من الشرع على غير مساره، وأن تنطمس هوية المسلم، وتتميع أحكام الشرع، وأن يتم اختراق حصونه، وأن تفكك قواعده وتزلزل ثوابته فلا ضير فى هذا كله ما دام أنه يرضى غروره ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ أَخَذَ إِلَهُهُ هَوْبَهُ وَأَضْلَهُ اللَّهُ عَلَىٰ عَمْرٍ﴾ [سورة الجاثية: الآية ٢٣].

يمضى أصحاب هذا النظر فى الفنيا المنفلتة وهم مفتونون بطريقتهم معجبون أشد الإعجاب بها، مع ما فيها من الاجترار غير المسبوق على الإسلام الذى ينقض عروة الدين، فهم مولعون بما ينعتمهم به بعض المتملقين والجاهلين بأنهم من المجددين والمبدعين الذين على أيديهم ينهض الدين وبرؤاهم المشوهة والممسوخة والمدلسة يكون التطور والحداثة واللحاق بركب العصر، ومن ثم فإنهم يتعجلون الخطى على طريق الضلالة والخسران. ولو أنهم وعوا متطلبات الفتوى، من الفهم العميق، والتدبر الحصيف لسلكوا مسلك الأولين، فقد كان السلف من الصحابة والتابعين يكرهون التسرع فى الفتوى ويود كل واحد منهم أن يكفيه إياها غيره، فإن رأى أنها قد تعينت عليه بذل اجتهاده فى معرفة حكمها من الكتاب والسنة

أو قول الخلفاء الراشدين ثم أفتى^(١).

وبدون ذلك فهم حريصون على دينهم قاصدين صالح أمتهم فقد كانوا يتهيبون الفتوى، وكانوا يضعون نصب أعينهم قول الرسول ﷺ: «أجرؤكم على الفتيا أجرؤكم على النار».

فإذا اجتمعت الجرأة وفقرة الفقه والعلم، فهي الطامة الكبرى، وهي من محدثات زمننا هذا كأن الرسول ﷺ يرقب هذا الزمان في قوله: «يخرج في آخر الزمان رجال»، وفي رواية: «قوم رءوس جهال يفتنون الناس فيضلون ويضلون».

وفي ظل هذه الفوضى والانفلات في أمر الفتوى، فينبغي أن تسند الفتوى إلى المتفهمين في الدين، المتبصرين بالأدلة الشرعية النصية والعقلية، ممن توافر لديهم الدراية بظروف العصر، ذوو فطنة بأحوال الناس، وفقه الواقع وفقه المقاصد وكذا فقه الأولويات، بحسبانها المؤهلة لها والكفاء بأبعادها، وأن يوضع جزاء على كل من تصدى لها من غير المؤهلين وذوى الكفاءة بها وهو ما قال به الحافظ البغدادي^(٢): «ينبغي لإمام المسلمين أن يتصفح أحوال المفتين، فمن كان يصلح للفتوى أقره عليها، ومن لم يكن من أهلها منعه منها. وتقدم إليه بالأمر يتعرض لها وأوعده بالعقوبة إن لم ينته عنها». وإزاء الظروف الناشئة عن الممارسات الخاطئة في الإفتاء المعاصر، فقد بات متعينا أن يوكل أمر الفتيا لأربابها من العلماء الثقات المخلصين، وأن تفرض عقوبة على المجترئين المضللين، لا يصح إلا هذا، ولا يستقيم شأن الإسلام بدون ذلك.

(١) كشف القناع للبهوتي. ج ٦ ص ٢٤٠.

(٢) كتاب الفقه والمتفقه، المجلد الثاني، ج ٧، ص ١٥٢ وما بعدها.

حرية الإعلام
بين
الالتزام والانفلات
رؤية إسلامية

الإعلام وصناعة الفكر

يعيش الإنسان المعاصر لنهاية الألفية الثانية، ومستهل الألفية الثالثة حالة من الدهشه والترقب الدائم، بسبب ماتبته وسائل الإعلام من تقنية مبهرة في الخير والمعلومة ومتابعة الأحداث وإثارة الغرائز، واغتيال الثقافات، وبرمجة التفكير، وغسيل الأدمغة، فتصتك أسنانه، وتتسع عيونه، ويهتز وجدانه، من فرط ما يصل إلى مسامعه، وما تبصره عينه، وما يطالعه ناظره، وهذا هو بالضبط ما قصده القائمون على هذه الشبكات الإعلامية، فهم قد حددوا أهدافهم سلفاً، وخططوا بدقة لبلوغها، وهياؤوا المناخ المواتي لإحداث أثرها، وبذلك الصنيع يسهل على هذه الأدوات الجهنمية اختراق الحصون المنيعه للعالم الأخرى غير الأوربية، وزعزعة الهويات، والتشكيك في القيم الروحية والدينية. وقد بات إنسان عالمنا العربي والإسلامي أمام هذه الصناعة الإعلامية الضخمة ما بين مبهور بها، مفتون بأفانينها، أو رافض لها ساخط عليها، وهو في الحالين فاقد التأثير، مسلوب الإرادة، منسحق تحت وطأة هذه التقنية الجبارة، مشتت الفكر، ما بين خصوصية ثقافية، وعولمة عصره، غارق في حيرته لا يدري كيف السبيل إلى التوفيق بين الأيدلوجيتين تتجاذبه الأطروحات المتباينة، منها التي تعتم بدينها، وتستمسك بهويتها والأخرى التي ترفع لواء العولمة globalism ومواكبة العصر والمعاصرة وعدم الانكفاء على الذات، والجمود على الموروث، سواء على

مستوى الفكر أو على صعيد السلطة، أو عند العامة والدماء. وهذا التشرزم في بنیان الأمة هو بلا ريب أحد إفرازات تلك الأبواق الإعلامية الجبارة. قد طلعت علينا هذه الشبكات وتلك المؤسسات الإعلامية، بسيل من الأفكار باعتبارها القطب الفاعل، والقوة الضاربة، والمدينة المتصدرة في عالم اليوم، والتي قدمت الديمقراطية وحقوق الإنسان، وثقافة السلام، وحقوق الأقليات وغيرها بحسبانها إنجازا غربيا خالصا، ومن نتاج لقاح العقول الغربية وحدها، وأحد مظاهر الحضارة الغربية، وآية على الإبداع الغربى فى النطاق السياسى والاجتماعى، فضلا عن المنجز الهائل فى المجال التطبيقى والتقنى، الذى انعقدت الريادة فيه للغرب بلا منازع. ويبدو أنه قد وقر فى الذهنية الغربية، التعامل من خلال هذه المنجزات مع الآخر، وبخاصة العالم العربى والإسلامى، على أن العالم الغربى له الحق بل كل الحق فى أن يوظف هذه العناوين البراقة، والمخترعات المبتكرة لإعادة تشكيل العامل الآخر، وعالمنا العربى بالذات^(١). عامدة من وراء ذلك إلى تقويض الهوية، وخلخلة الذاتية المتفردة للأمة، وتحطيم المصدات التى تمثل الدرع الواقى ضد الهجمة على ثوابت الأمة، وصوالحها العليا.

وقد أحرزت وسائل الإعلام الغربية، بعض النجاحات فى هذا المسعى الذى تبذل من أجله كل غال ونفيس، لكى تقتلع كل مظهر، وتشكك فى كل رمز تلتف حوله الأمة ومن ثم تجتاح عالمنا العربى والإسلامى وتطويه فكريا وأيدولوجيا ومدنيا، وتبتلعه لقمة سائغة فلا يبقى له وجود ويضحى جثة هامة لا تقدر على حراك.

(١) تسلط هذه الورقة الاهتمام على العالم العربى والإسلامى، نظرا لطبيعته الدراسة.

والغريب أن وسائل الإعلام فى صنعها ذاك ترفع راية الحرية، والسموات المفتوحة، والقربة الواحدة، وماتدرى أن الترويج لكل الأفكار والمفاهيم التى تسبح فى جنبات الكون، عبر وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة، إنما تحمى حرية الإنسان الغربى، وتدافع عن صوالحه، وتسخر الآخرين لحسابه، وتسحق أبناء عالمنا وتصادر حرياتهم، وتعصفت بحقوقهم. لا لشيء إلا إرضاء نزوات الإنسان الغربى، وتزويده بأكبر قدر من الرفاهية والمتعة والإثراء على حساب الغير.

الحرية فى الممارسة الإعلامية الغربية

إن الحرية منحة الهية وفطرة إنسانية، وصناعة قانونية، ينبغى أن تمارس بضوابط تمثل سياجا واقيا يحميها من الاشتطاط ويمنعها من التجاوز، بما يرشد مسيرتها، ويحفظ كرامة الإنسان، ويوازن بين الحريات جميعا، ويصون الحرمات. فمن المعلوم أن ممارسة الشخص لحريته ينبغى أن تنتهى عندما تبدأ حقوق الآخرين، فالفرد بذلك المسلك يكون قد التزم بحق الغير فى الحرية، ومن ثم تحمى كل الحريات وتنطلق الملكات نحو الإبداع الخلاق.

والحرية فى النظر الإسلامى هى حرية مسئولة منضبطة، يستوى فى ذلك أن تكون حرية للفرد أو للجماعة، على المستوى الخاص فى الشئون الفردية أو على المستوى العام فى الشئون المتعلقة بالأمة، أيا كان ممارستها الفرد لتحقيق رغباته وللتعبير عن ذاته، وإنجاز مصالحه، أو الدولة من خلال وسائلها الإعلامية من صحافة وإذاعة وتلفاز، ذلك

أن الحرية المشروعة تلتزم بالصدق، وتسعى إلى المصلحة، وهاك طرفا من ضمانات الحرية في إطارها الصحى الصحيح. ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [سورة التوبة: الآية ١١٩].
 ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [سورة الاسراء: الآية ٣٦].

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْ لَهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [سورة النحل: الآية ١٢٥].
 ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [سورة فصلت: الآية ٣٣].
 ويقول الرسول ﷺ لا ضرر ولا ضرار.

وروى عنه - صلوات الله عليه - المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده. ومن هنا تركز الحرية في الإسلام، على الإلتزام بالصدق فى الخبر والتوعية والتثقيف، وتسللك سبيل الحكمة والإقناع السديد، والقول الرصين وبيان عاقبة السلوك الرشيد، ومناقشة المخالفين والتحاور معهم، بأحسن السبل وفضل المسالك، وهذا ترسيخ لثقافة التعايش والسلام مع الآخرين.

ثم إن الإسلام يقدم النموذج القويم للمساءلة عن سلوكيات الفرد فى النطاق الشخصى والعام، فهو فى ذاته ينبغى أن يكون قدوة، وفى أدائه لواجبه يكون على دراية وتبصر وعلم بما يقوله، ويدعو الناس إليه، وهو مأمور بالإعلام عن القيم الإيمانية والدينية، بالطريق الصحى الذى يشوق الناس إلى الإيمان بالله، وهو فى كل ذلك مسئول فى كل أحواله، فلا

يستخدم قدراته العضوية والذهنية إلا فيما ينفع ويبني وأن ينأى بأقواله وأفعاله عن أن يضر بالآخرين ، أو يتعدى على حرمتهم أو يصادر حقوقهم . وقد وعى الإسلام هذه الحقيقة منذ البدايات الأولى ، إذ أنه بمقتضى نصوصه وغاياته ، رسالة إعلامية للإنسان تدعو إلى عقيدة التوحيد والمثل الأخلاقية ، فكان لا بد من الالتحام بالناس لبيان الحقائق الإسلامية ، عن طريق النفاذ إلى قلوب وعقول الجماهير ، وتبصرتهم بما فيه سعادتهم فى الدنيا ، وخلصهم فى الآخرة . ونزل القرآن ليكون منهجا مجسدا للعقيدة الربانية والحضارة الدينية ، والمدنية الإنسانية وقانون التعامل وأخلاق المؤمن ، لا بالقسر ولا الهدم أو التشويش ، وإنما بقوله تعالى : ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ [سورة البقرة: الآية ٨٣] .

وقوله جل شأنه : ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ [سورة يوسف: الآية ١٠٨] .

وقد التزم صاحب الرسالة إلى أقصى حدود الإلتزام بالوسيلة والمنهج ، وسار على نهجه الراشدون من بعده ، فكان اتصالهم بالناس وتبليغهم الإسلام بالرفق واللين والهوادة ، فى غير ضعف ولا استكبار ، موقنين بأن الله قضى بالاختلاف فى الهوية والفكر والجنس واللون واللغة ، لكل فرد ، ولكل جماعة أن تختار لنفسها ، فى ظل بيان الإسلام للناس ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، وكل شخص مسئول عن اختياره ، لا يصادر فكره ، ولا يعتدى على حرمة ، ولا تهدم عقيدته ، ولا تسلب حقوقه ، ولا يحرم من ممارسة حريته فى ظل احترام القيم والمعتقدات السماوية . وهو ما نشهد مصادرتة واحتواءه من جانب الإعلام الغربى .

فلسفة الخطاب الإعلامى الإسلامى

كان أكثر ما عنى به الإسلام فى دعوته الإنسانية، هو بناء الإنسان المسلم، المؤمن بربوبية الله، القائم على منهج الله فى الكون، المحقق للرسالة الإسلامية فى عماره الأرض، الذى يتعايش مع الآخرين، ويتحاور معهم للوصول إلى النفع العام، والاجتماع على كلمة سواء، فى ظل الاحتفاظ بالخصوصية والتنوع، والتعامل بالأخلاق الفاضلة، التى تشيع الأمن النفسى والاجتماعى بين بنى الإنسان، وتعالى من قيم التعاون والتفاهم الذى ينبغى أن يسود بين من تجمعهم وحدة الأصل الإنسانى. إعمالا لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [سورة الحجرات: الآية ١٣].

وانطلاقا من هذه المظلة التى يستظل بظلها الناس جميعا على أساس من فلسفة الخطاب الإعلامى الإسلامى، كان الإعلام الإسلامى بمصطلح العصر، هو إعلام ينبنى على التعددية وقيم الإسلام الحضارية المعبرة عن مثل الخير والتعاطف والتعاون والتساند والتسامح وهو الأمر الذى جعل من خاصية الإعلام الأساسية أنه إعلام بناء لا هدام وعطاء لا سلب، وتحاور لا إذعان، ولم يكن يعتمد فلسفة فرض النموذج الواحد، وإلغاء الخصوصيات، كما هو الشأن فى الإعلام الغربى المعاصر، ومن ثم كان الإعلام الإسلامى إعلام تأثير هادف وليس إعلام إثارة ومادية نفعية وقولبة الآخرين، ومحو شخصيتهم والنعى على ثقافتهم بأنها ثقافة عدوان وعنف وتخلف.

الحاجة إلى فلسفة إعلامية خلاقة

ونحن فى هذا المضمار لا ندين الإعلام المعاصر من حيث هو إعلام، فلا جرم أنه ضرورة لازمة للتواصل الإنسانى، وطاقة زاخرة لإشاعة الوعى والتثقيف، وتوجيه الفرد إلى وجوه من النفع لا تنكر، فهو يساعد على الاختيار، والانتفاع بما عند الآخرين، بجانب ما فيه من ترفيه وتسليية تخفف على الناس معاناتهم، اليومية والإفادة بما توصلوا إليه من تقدم وارتقاء فى مجال التنظيمات والتقنيات فى العلوم الإنسانية والتطبيقية. على أن المعضلة الإعلامية العصرية تكمن فى الوجوه المتعددة، والقناع التنكرى الذى يرتديه الإعلام المعاصر، فإن المتابع لفاعلياته يجد أنه يوظف الجانب الإيجابى فى بناء وإقامة صرح الكيان الحضارى للإنسان، جنبا إلى جنب الاستخدام السلبى حيث يقوم بهدم القيم الروحية واختزال الإنسان فى وثنية المال والبورصة بما يقترن بها من الابتزاز والانتهازية والأنا البغيضة، وتدمير الأخلاق وإنسانية الإنسان. لقد كان المأمول بدلا من تعظيم الجانب السلبى الهدام للإعلام الغربى، أن يوظف إمكانياته الهائلة، وتقنياته المبهرة فى الارتقاء بالجوانب الروحية جنبا إلى جنب مع إبراز الحافز إلى التقدم وإحراز الثروة، وبلوغ معدلات أعلى للتنمية، وأن تستلهم فلسفة التعامل مع الإنسان عقلا ووجدانا وأن يكون معبرا أمينا عن المثل العليا، والضمير الإنسانى. إن العالم يتطلع إلى نظام إعلامى يحقق طموحات وآمال الشعوب النامية، ويعترف بخصوصياتها، ويفتح الباب أمام ثقافتها لتشكل فلسفة النظام الإعلامى الجديد، ويستشعر آلامها، ويعزز من دورها فى النطاق

الدولى . والمفارقة المثيرة للدهشة فى هذا الموضوع ، أن منظمة اليونسكو (منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة) ، قد أرست العديد من الإعلانات التى تسير فى هذا الاتجاه ، منحه الحرية المسئولة والمهمومة لبعض معاناة عالمنا العربى والإسلامى فى هذا الخصوص .

ومن ذلك الإعلان العالمى^(١) الصادر فى نوفمبر ١٩٧٨م بشأن المبادئ الأساسية الخاصة بإسهام وسائل الإعلام فى دعم السلام والتفاهم الدولى ، وتعزيز حقوق الإنسان ، ومكافحة العنصرية ، والتحريض على الحرب . ومن قبل أصدر المؤتمر العام لمنظمة اليونسكو قرارا عام ١٩٥٦م بوجوب إزالة المعوقات فيما يتعلق بتنفيذ تدفق الأنباء بحرية ، وسياسات الاتصال لمساعدة البلدان النامية فى إنشاء وتدعيم أجهزتها الإعلامية بما يتفق مع حاجاتها وتحريرها من الاعتماد على البلدان المتقدمة بالنسبة لنظم الاتصال والإعلام الخاصة بها .

وقد خطت المنظمة خطوات إيجابية باستخدام وسائل الاتصال للنهوض بالتعليم وتقدم العلوم والثقافة ، والدور الذى يجب أن يلعبه الاتصال فى زيادة الوعى بالمشكلات الرئيسية التى تواجه عالم اليوم . كما أولت اليونسكو عنايتها بصيانة الذاتية الثقافية ضد الغزو الفكرى الأجنبى ووقاية مقومات أصالتها من مخاطر التيارات الثقافية الأجنبية التى تشوه طبيعتها وتضر بمستقبل الأمة ، وقد أصدرت المنظمة لهذا الغرض إعلانا عن مبادئ التعاون الثقافى الدولى فى نوفمبر ١٩٦٦م جاء فيه :

١ - لكل ثقافة كرامة وقيمة يجب احترامها والمحافظة عليها .

٢ - من حق كل شعب وواجبه أن ينمى ثقافته .

(١) د. جعفر عبد السلام ، الإطار التشريعى للنشاط الإعلامى ، ١٩٩٣م ، ص ١١٦ وما بعدها .

٣ - تشكل جميع الثقافات بما فيها من تنوع وخصوبة ، وبما بينها من تباين وتأثير متبادل جزءا من التراث الذى يشترك فى ملكيته البشر جميعا .

التوجهات المشبوهة للفكر الغربى تجاه الإسلام

لقد كان حربا بمخططى وصناع السياسات الإعلامية فى الغرب أن يحققوا متطلبات الإعلانات العالمية ، النابعة من الضمير العالمى ، والمعبرة عن الإرادة الأممية ، لكن شتان ما بين المثال والواقع ، فإن المفكرين الغربيين لا يفتأون أن يرددوا بعض المقولات التى تناقض التقارب والتواصل العالمى مثل مقولة Kebling كيبلينج الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا . ومقولة ما كسيم رودنسون : إن العالم المسيحى الغربى فهم العالم الإسلامى ضمنا كخطر قبل زمن طويل من البدء برؤيته كمشكلة حقيقية . ويعترف بعض المفكرين الغربيين بالوصاية الإعلامية الغربية على العقل العربى المسلم ، فيقول برنارد لويس : لقد خلق تأثير الغرب فى أرض العرب مشاكل حقيقية ، وذلك باقتلاعهم من قواعدهم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، وبإثارته لمركب النقص الثقافى فيهم .

وقد وصل هذا الاتجاه أمدا بعيدا ، بنظرية صدام الحضارات Clash of civilization للكاتب الأمريكى صمويل هانتنجتون^(١) ، وتصويره الإسلام كمكمن للخطورة على الحضارة الأمريكية الغربية ، حيث يعتبر الدين أكثر من الاثنى فى إيجاد التفرقة الحادة بين الناس ، ويعتقد أن التفاعل بين الإسلام والغرب سيكون من خلال التصادم الحضارى . وهو منطق

(1) The clash of civilization samuel p. Huntington, pp. 27.32 Aforeign Affairs Reader.

يؤصل ردة حضارية، ويعكس فكرا مغلوطا، يزكى الصراعات، ويثير الإحن والعداوات، وينسف الجهود العالمية فى التفاهم والتعاون بما يتضمنه من تخصيص الحضارات والثقافات الأخرى لمجرد إنها لا تنضوى تحت لواء الحضارة الغربية ولا تخرج من عباءتها، وتقدم للعالم رؤية وفكرا مغاييرا لتلك التى تفردها الثقافة الغربية على العالم باسم العولمة. ومثل هذا الموقف، يكشف عن زيف الشعارات التى يتشدق بها الغرب عن السلام والديمقراطية وحقوق الإنسان، وقد يؤكد هذا المنحى ما ذكره فواز جرجس فى كتابه أمريكا والإسلام السياسى، صراع حضارات أم صراع مصالح، طبعه ١٩٩٨م، بقوله: لا يزال الإسلام فى نظر كثير من الأمريكيين ثقافة عدائية وخطرا على مصالحهم وقيمهم الثقافية وتتجذر معظم آراء الأمريكيين عن المسلمين إلى حد ما فى الأصول الدينية للولايات المتحدة، ولربما تعزى هذه الآراء أيضا إلى نزاع تاريخى بين المسيحيين والمسلمين، أى إلى مجابهة تنتقل عبر الأجيال بواسطة الآثار الأوربية وبمأثورات شعبية، ووسائل الإعلام الجماهيرية واللغة الأكاديمية المرعية.

إن خطورة هذه التوجهات المنحازة، أنها تعكس صورة ذهنية مغلوطة، وواقعا إعلاميا غربيا جاهلا بالشخصية المسلمة، ينظر إلى المسلم نظرة جاهلية وإلى العالم الإسلامى كبؤرة للإرهاب والقسوة والبداءة وامتهان النساء.

ولقد وصل الأمر لدرجة اعتبار الغرب أن الثورة الإيرانية. ما هى إلا مجرد إحياء للقيم التقليدية العفنة، وأنها تتشابه تشابها أكثر من أن يكون سطحيا مع النازية الأوربية إلى هذا الحد بات الإسلام صورة كريهة ومظهرا

لقيم بالية، تجاوزها الزمن، وأصبحت في عداد الماضي البغيض الذي يحمل فكر التخلف والبداءة والرجعية الممقوت، بما يمثله من خطر على الحضارة والمدنية، لما يحتوي عليه من همجية وبربرية كتلك التي فجع بها هتلر النازي العالم، وكان عنوانا على حركة مضادة لمسيرة التاريخ. وهكذا فإن أعين الغرب على الإسلام، حتى في الدول التي لم يصل فيها الإسلام إلى السلطة بشكل مباشر، فإن الإسلام - في رأى الغرب - يشكل خطرا على الديمقراطية في هذه الدول، بل إن الإسلام يشكل أحد عناصر تحدى العراق للغرب، حيث يجد الغرب صعوبة في تخيل عالم أفضل بكثير من عالمه أو تخيل مستقبل ليس ديمقراطيا ورأسماليا^(١) وفق نموذجه الأثير، الذي يفرضه على الآخرين فرضا.

وبرغم أهمية الصورة الذهنية خاصة إذا تكرر الإلحاح عليها، وتحولت إلى صورة منطبعة Steryotype، فإن هذا لا يعفى الغرب من التحيز المسبق مع سبق الإصرار والترصد ضد المسلمين، خاصة في ظل انفجار المعلومات information Explosion أو فيضان المعلومات information Flowed واتساع النشاط الإنساني^(٢).

وتمضى هذه الصورة الخاطئة للتآمر على الإسلام ورسم صورة مرعبة لأتباعه، حتى تصاب الشخصية المسلمة في صميمها، وينهار كيانها،

(١) فاروق أبو زيد، الإعلام الدولي وتطور تكنولوجيا الاتصال والمعلومات، مجلة الدراسات الدبلوماسية العدد الثامن، ص ١٨٣، ١٩٩١م. مشار إليه لدى د. مرعى مدكور، بحث الاتجاهات الحديثة في بحوث الصورة الذهنية للعالم الإسلامي عند العزيبين، مؤتمر رابطة الجامعات الإسلامية، نوفمبر ١٩٩٨م.

(٢) فوكوياما، نهاية التاريخ وخاتم البشر، ط، ترجمة حسين أحمد أمين، القاهرة، ١٩٩٣م، ص ٢١٠، ٥٧.

ويذهب ربحها، ويغدو الإسلام شبحاً في كهف التاريخ، وعلى هذا المخطط يتحالف الغرب مع الصهيونية العالمية ودولتها إسرائيل وفقاً لخطة مدروسة وبرامج معدة بإتقان وإبهار لإنجاز الغاية المرجوة. ﴿وَيَمَكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [سورة الأنفال: الآية ٣٠]. إن تتابع فصول حلقات هذا المسلسل التأمري، يوقن بأن توالى صور الإساءة والمهانة والتشويه ضد الإسلام، ومن يحمل جنسيته من المسلمين، ليس وليد الصدفة، ولا جاء عفو خاطر، فهاهو ذا الكاتب الإنجليزي من أصل هندي سلمان رشدي في روايته: آيات شيطانية Satanic verses والذي يسيء إلى الرسول وزوجاته، أبلغ إساءة، فالإسلام عنده دين الخنوع وهو دين السلب والنهب، إذ الغاية تبرر الوسيلة، وهو دين البداوة والخرافات والفحش الداعر ومع ذلك وجد الحفاوة والتكريم بسبب إبداعه المزعوم، وتجنيد بريطانيا كلها لحمايته ضد ما أسمته بالتطرف الإسلامي، وتزييفها للوعي العالمي بأنها تحمي الإبداع الفكري وحرية التعبير، لهو تأصيل مكين للحقد الدفين على الإسلام والمسلمين بعد أن تجاوز الكاتب كل الخطوط الحمراء، وطعن الإسلام - وهو جماع الأديان السماوية - بطعنه نجلاء في القلب. وتكمل المأساة حلقاتها، بمنح الكاتب جائزة فرنسية بسبب إبداعه الأدبي عن هذه الرواية الشوهاء.

وتلمس على الجانب الآخر، الوجه الحقيقي لفرنسا كتعبير عن النموذج الغربي، في محاكمتها لجارودي الفرنسي المسلم بسبب ما أسمته بالتشكيك في أعداد اليهود الذين اكتووا بنار المحرقة النازية،

هذا وذاك يحدث في عاصمة النور والجمال في باريس الحسناء إن هذا وغيره كثير يجرى باسم المدنية والحضارة وسيادة القانون والضمير الإنساني والاستنارة وهو ما يرسخ المعيار المزدوج ، Double Standerd ، في التعامل الغربي تجاه الثقافة الإسلامية ومناهضة كل ما يمس الاسطورة اليهودية وهو جلى في اعتبار آيات شيطانية إبداعا يستأهل المكافأة والكبت والتشهير بالأساطير الإسرائيلية وإدانة صاحبها وهو المعيار المنحاز بل المتعصب ضد كل ما هو إسلامي ، والمحتضن لكل ما هو غربى والذى يجعل من المستساغ مكافأة سلمان رشدى لتدميره الإسلام وإدانة جارودى للتشكيك في عدد اليهود الذين راحوا ضحية محرقة النازية فأيهما أكثر قداسة وأوجب بالحماية ، حرمة الإسلام والأديان أم المطلب اليهودى ومنشؤه اللوبى الصهيونى اليهودى.

لقد عاصر ظهور النفط في البلدان العربية ، تزايد الاهتمام بتحليل الشخصية العربية ، ورصد سلوكياتها ، ومتابعة التطورات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التى صاحبت ظهور هذه القوة على الساحة ، ووضع الغرب نصب عينيه ابتزاز هذه الثروة بالتعرف إلى نمط الشخصية العربية ، والتعامل معها من نقطة الضعف التى تمكن الغرب من الإفادة من ثرواتها بل إحكام السيطرة عليها برسم سياسة إعلامية تهيبى المناخ الملائم لسحقها ، الأمر الذى نجح فيه هذا الإعلام إلى حد بعيد.

وقد سخرَّ الغرب كل طاقاته الإعلامية ، لتحقير العرب ، والتنفير من الإسلام ، وكان المخطط حصار العربى والمسلم ، وقد عقد من أجل ذلك المؤتمر الدولى السادس حول الإعلام العربى والأوروبى ، الإعلام

والحوار من أجل المستقبل Media Dialogue for the future ، استضافته البحرين في الفترة من ٢٢ : ٢٥ فبراير ١٩٩٨م وقد ضم هذا المؤتمر شخصيات غربية مهمة شاركت في مؤتمرات متعددة عن الصورة الذهنية والحوار العربي الأوربي ، وكما يقول مرعى مدكور^(١) مما يجعل بعض الأفكار المطروحة تنتم لمؤتمرات ولقاءات سابقة حول الموضوع نفسه ، ومنها ندوة الصحافة الدولية المنعقدة في لندن ١٩٧٩م.

وفي المؤتمر يعترف البريطاني سير سيريل تاونسيند Sir syril Townsend ، أن الصحافة الغربية بمثابة مشروعات تجارية تجرى وراء الأخبار السيئة طبقا للقاعدة الذهبية لدى أغلبها Bad news is good news ، كما تجرى وراء المآسى والفضائح والقصص الرخيصة وغير الأخلاقية أكثر من اهتمامها بقضايا التدهور البيئي والنمو السكاني والآثار النفسية لأى صراع.

ومن هنا فقد أصبحت الآراء المقبولة Stereotyping ، عن العرب والمسلمين ظاهرة في الإعلام الغربى على الدوام ، ولا تزال كما هي في الوقت الحالى على الرغم من تقلص شيوع بعض التصورات السلبية مثل^(٢) :
الوحشية الموجودة داخل الثياب الطويلة المتدلّية .

شيوخ النفط الأغنياء السمان المسرفين .

أن العرب غير أكفاء وإرهابيون .

ومن البدهى تقديم الإسلام والشخصية العربية مقترنان ومتلازمان ،

(١) المرجع السابق ، ص ١٥ .

(2) Sir cyril Townsend. Media Coverage of Arabs in Europe. The sixth international conference Euro Arab Media, Dialogue For the future, Baahrain, feb. 1998 P 1 - 3.

فى الإعلام الغربى؁ فكلاهما وجهان لعملة واحدة؁ وإضفاء المهانة على العربى ينسحب بالضرورة فى التصور الغربى إلى الإسلام؁ بافتراض أن الإسلام هو الذى صنع الشخصية العربية؁ من الثيوقراطية Theocratic؁ والاستبداد السياسى؁ وتعدد الزوجات؁ وامتهان المرأة والتخلف؁ وضيق الأفق والتعصب... الخ هذه النعوت الموسومة فى الشخصية العربية. وقد ترتب على ذلك وصم الإسلام بأنه الدين المجسد للعنف والقسوة؁ واستعداد الآخرين ورفض التعايش معهم؁ وشاع لدى الغرب مصطلح Islamophobia الخوف من الإسلام؁ بمفهوم أن هذا الدين لا يناسب وضعية العصر؁ ولا يواكب أحداثه ولا يصلح للمشاركة فى صنع حضارته؁ فهو دين رجعى؁ معطل لحركة التاريخ؁ وللمدنية الغربية المعاصرة.

الصورة المشوهة للإسلام

قد يحار الباحث المنصف فى تبرير قتامة صورة الإسلام لدى الغرب ووسائله الإعلامية؁ إذا أمعن فى بحث العلاقات القائمة بين الغرب والعرب ودول النفط العربى بوجه خاص؁ لما يجنيه الغرب من مكاسب وتحصده أمريكا بالإضافة إلى كم المصالح التى يحصل عليها لكن تبدو الصورة معكوسة وظالمة إذا تحمل الإسلام هذه الأوزار التى يوصف بها السلوك العربى؁ وهو منها براء؁ وكان الأولى والأصح؁ أن يحكم على الإسلام من خلال مبادئه وتعاليمه التى وردت فى أصح وثيقتين وهما القرآن والسنة؁ وفى التطبيق الكامل المستنير للإسلام من جانب العرب فى صدر الإسلام. وأغلب الظن أن العرب فى توجهاتهم وفى سلوكياتهم والنظم القائمة لديهم وفلسفتهم الحياتية المعاصرة ليسوا هم النموذج الصحيح للإسلام

لا فى شئون الحكم والإدارة ولا فى النظم الاقتصادية والاجتماعية، وإنما وقفوا بالإسلام عند الشكل والقشور، و طرحوا الجوهر والمضمون، وأقاموا نظمهم وخططهم على أخلاط من التوجهات والفلسفات التى ليس بينها تناغم أو تحاكم إلى صحيح الإسلام وروحه الوثابة، وفكره المستنير، الذى يسير الأوضاع، ويقدم الحلول، ويملك زمام المبادرة، ويحقق النهضة والتنمية للفرد والجماعة فى كل المجالات، وليس فى ذلك النموذج الذى يعتمد التقليد والانكفاء على الذات، واختزال الإسلام فى العبادات والشعارات ونفيه فى أمور الاجتماع والاقتصاد والسياسة، أو فى تغييره عن الساحة، واستيراد الفلسفات والنظم، وهو بمعزل عن الهيمنة عليها وتوجيهها، مع النص على الاحتكام إليه واعتباره المرجعية والأصل. ومن هذا الطرح للإسلام فى الأنظمة الحياتية العصرية وفى ضوء الممارسة العصرية للبلدان العربية والمسلمة، يستبين الجزء المغيب فى الصورة، ويبرز المعضلة الراهنة الكامنة لدى الأنظمة والفلسفات العربية العصرية، وهو أنها ليست حجة على صحيح الإسلام، ويصح القول بأن العرب عبء عليه، ودعاية سلبية له فى الحاضر.

ومن اللازم الضرورى، أن تعكف النخبة العربية على تشخيص الحالة، وأن تحدد مقدار الغلط فى المسيرة، وأن تنطلق فى رسم السياسات والفلسفات، النابعة من الإسلام، وأن تعيد تقييم مؤسساتها، وأن يقوم الاعوجاج فى السلوك العربى، بما يعبر عن الالتزام بالإسلام فى العلاقات والتعامل ونمط الحياة فى الداخل والخارج.

وهنا يغدو لازماً، التواجد الإعلامى الإسلامى، كصوت فاعل ومؤثر فى التعبير عن الهوية والذاتية الإسلامية، وبيان الحقائق الإسلامية فى شئون الدين والحياة، والنفاز إلى عقول وقلوب الجماهير بالحكمة المطلوبة، وأن تقدم الوسائل الإعلامية المجتمعات الإسلامية كمجتمعات لها خصوصية ثقافية وثوابت دينية واجتماعية وحضارية، تساهم فى التقدم الإنسانى، وترقى بالحياة فى شتى المجالات العصرية.

لقد بات ملحا على الإعلام الإسلامى أن يتصدى للتحديات والمخاطر التى تواجه الأمة، وتبغى اقتلاعها من جذورها، وأن تواجه صناعة الإعلام الغربية فى وصم الإسلام بالتخلف وعدم الصلاحية، وأن يتبنى هذا الإعلام كشف تزييف الأطروحات الإعلامية الغربية، بشأن القضايا التى تعكف على ترديدها بإلحاح، لضرب صورة الإسلام والعرب والمسلمين فى الخارج، مثل السيوقراطية والاستبداد، وخرق حقوق الإنسان، وامتهان المرأة، وإلصاق الإرهاب، إليه والتعصب واضطهاد الأقليات، وعلى الإعلام الإسلامى أن يكون صوت الإسلام، والترجمان الصادق والأمين لمبادئه وثوابته وممارساته الحياتية إبان العصر الذى قدم نموذج الإسلام الصحيح فكراً وتطبيقاً وهو ما يقتضى عرضاً لمبادئه وهويته وأطروحاته الحياتية، بحسبان هذا الإعلام، هو فن إيصال الحق للجماهير بقصد الإقناع به، وكشف الباطل ودحضه قصد طرحه واجتنابه، فهى إذن مهمة بناء وتحسين.

وينبغى الاعتراف بأن رسالة الإعلام الإسلامى رسالة عالمية، تعرض بموضوعية وجاذبية فى آن واحد شمول الإسلام كدين وحياة عقيدة وسلوك اجتماعى، مثال ومادة، تبنى الإنسان وتعمر الكون وترتقى به، تعبر عن خصوصية الإسلام، وقبوله للناس جميعاً.

لقد آن الأوان، أن يظطلع الإعلام الإسلامى، بتقديم الفكر الإسلامى فى القضايا التى تطرح فى الإعلام الغربى من منطلق الغزو الفكرى التى تشكل رأس حربىة تطعن الوجود الإسلامى فمن المعلوم الجلى، مسخ الإعلام الغربى لصورة الإسلام، وتقدمه كنظام حكم ثيوقراطى (نظرية الحكم الإلهى). وهذا محض هراء، لأن الحاكم فى الإسلام هو حاكم مدنى من كل الوجوه وليس حاكما دينيا، ونظام الحكم فى الإسلام هو عقد اجتماعى بين الحاكم والأمة، هى التى توليه السلطة باختيارها، وهى التى تقومه، إذا انحرف وتقوم على نصحه، وتعزله إذا خرج على الشرعية الإسلامية.

ولعل فى مقولة أبو بكر الصديق ما يؤكد هذه الحقيقة: إنى وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينونى، وإن أسأت فقومونى. والحكم فى الإسلام ينأى عن الاستبداد، ويتغيا الحق والعدل، ونصوص القرآن صريحة فى هذا المعنى: ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [سورة ص: الآية ٢٦].

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [سورة النساء: الآية ٥٨]. والشورى ركيزة الحكم الإسلامى؟ ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٥٩]. وهو خطاب الله لرسوله النبى والحاكم السياسى. كذلك قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [سورة الشورى: الآية ٣٨].

بهذا المنحى يتجه الخطاب الإعلامى ، بإلصاق كل اتهام يثار ضد الإسلام ، وهو ما ينبغى التصدى له ببيان الفكر والواقع الإسلامى الأول ، الذى نبع من معين الإسلام والتزم تعاليمه الصحيحة غير المشوشة ولا المبتورة . وما يدعيه الإعلام الغربى عن خرق حقوق الإنسان فى الإسلام^(١) . هو تعبير عن الانتهازية الإعلامية ، التى تأخذ من الواقع المتردى الحالى سندا لها ، لكى تبلغ مرادها فى تشويه الإسلام ، ومصادرة مبادئ الحرية والمساواة والحرية بشعبها المتعددة ، حرية الرأى ، وحرية التعليم ، والحرية الشخصية وحرية التنقل ، وحرية الملكية ، المكفولة فى الإسلام ، ولا أدل على كفالتهما من تقريرها بحسم وصراحه ، فى قضية العقيدة ، وهى ألصق الحريات مساسا بالإسلام ، ومجابهة له ، ومعلوم أن تقرير الحرية الأعلى ، يتضمن تقرير الحريات الأدنى بالضرورة ، وبطريق الأولى . ﴿ فَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [سورة يونس : الآية ٩٩] . ﴿ فَذَكَرْنَاكَ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ ۝١١ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴾ [سورة الغاشية : الآية ٢١] . ﴿ إِنَّ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴾ [سورة مريم : الآية ٩٣] . وليس أقوى من إثبات الحرية للإنسان ، من خضوعه لعبودية الله وحده دون سواه ، وحقه فى اختيار الدين الذى يرغبه ، واقتصار العبودية لله ، يستوجب تحريره تجاه الناس ، وحقه فى حرية الرأى والتعبير ، وسائر الحريات الأخرى .

وعلى نفس المنوال ، ينبغى تناول حقوق الأقليات ، والإسلام يفارق النظم الأخرى فى أنه لا يعامل غير المسلمين داخل دولته على أنهم

(١) انظر للباحث : حقوق الإنسان فى الإسلام ، ١٩٩٩م .

أقلية، بل إنهم يتمتعون بالرعية - جنسية الدولة - شأن المسلمين وهم مكرمون بتكريم الله لهم، ووجوب المحافظة على حقوقهم الإنسانية. ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [سورة الإسراء: الآية ٧٠].

وامتثالاً والتزاماً بذلك، نهض الرسول ﷺ واقفاً حينما مرت عليه جنازة ليهودى، فلما أخبره بعض صحابته عن أنها ليهودى، قال: أليست نفساً.

وثمة قاعدتان ذهبيتان فى معاملة غير المسلمين هما: أمرنا بتركهم وما يدينون وقاعدة: لهم ما لنا وعليهم ما علينا. وبمقتضاها فهم أحرار فى العقيدة، وممارسة الشعائر الخاصة بهم، ناهيك عن مساواتهم المسلمين فى الحقوق والواجبات، والمشاركة فى مؤسسات المجتمع المدنى.

وتأتى حقوق المرأة فى هذا المضمار، بوجوب التصدى لما يروجه الإعلام الغربى من أفكار مغشوشة، عن وضعها فى المجتمع وفات هذا الإعلام أن المرأة مخلوق مكرم، وهى مع بنات جنسها شقائق الرجل، ونصوص الإسلام وممارساته تترى فى هذا الموضوع.

﴿فَأَسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ ۖ بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٩٥]. وفى الحديث: النساء شقائق الرجال.

وهى صاحبة حق كالرجل فى اكتساب الحقوق والتحمل بالواجبات: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبْنَ﴾ [سورة النساء: الآية ٣٢].

وهى بموجب ذلك تتمتع بالاستقلال فى الشخصية، والذمة المالية عن الرجل، لها الحق فى المشاركة السياسية، فقد بايعت الرسول فى تأسيس الدولة، فى بيعة العقبة الثانية. فضلا عن الدفاع عن حقوقها الخاصة، والاجتماعية. فقد عارضت امرأة عمر فى تحديد المهر وسلم لها عمر بذلك قائلاً: أصابت امرأة وأخطأ عمر. ولا ينفك الإعلام الغربى عن وصم الإسلام بالنقائص، ولا يفتأ أن يواصل حملته ضده بنسبة اتهام إثر آخر، ومن جملة هذه الاتهامات تصوير الإسلام بأنه دين التعصب، ورفض الآخر، ويصم أتباعه بالجمود وضيق الأفق، وهذا من الإفك الذى لا يسوغه الدين والعقل المنصف ويدحض هذا المنظومة القرآنية فى جوانبها العقيدية والتشريعية والأخلاقية والاجتماعية، فإنها تعتمد الحوار، وتبرهن على حقائق الإسلام لإقناع المخالف، وهو ما جعل الإسلام بحق دعوة للحوار والمناظرة وكلها تشهد بالسماحة والتسامح الإسلامى، وهاك طرف من هذه النصوص: ﴿وَإِنَّا أَوْ أِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سورة سبأ: الآية ٢٤].

﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [سورة فصلت: الآية ٣٤]. ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [سورة العنكبوت: الآية ٤٦]. ويقول الرسول ﷺ وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن.

وفى الحديث: أكمل المؤمنين إيماناً أحاسنهم أخلاقاً، الموطأون أكنافاً، الذين يألفون ويؤلفون وليس المقام مقام إسهاب وتجلية لموقف الإسلام من هذه القضايا المشتعلة، والتي يقصد الإعلام الغربى من

وراء إثارته إلى حرق الإسلام، وتقويض بنيانه من الأساس، واقتلاع هويته، وإنما هو إشارة وتوجيه لما يجب على الإعلام الإسلامي عمله في الاتجاه الصحيح لحماية لقيم الإسلام ومعتقداته وجوهر ثقافته وبناء حضارته ورموزه وستظل هذه الرسالة، هي تلخيص لطبيعة المهمة التي على الإعلام الإسلامي أن يضطلع بها، ويعبئ إمكانياته، ويحشد طاقاته من أجل إعلام الآخرين بها، لأن الوجود الإسلامي في الإعلام الإلكتروني لا يزال قاصرا، وحبس أفكار تقليدية، وأسلوبا قاصرا عن مواجهة تكنولوجيا الاتصال، وتقنيته الجبارة، وهو ما يكرس البون الشاسع بين التفوق الغربي والانكسار الإسلامي في مجالات شتى، ولعل ما يبرهن على عمق التفاوت بين نظام الإعلام الغربي والإعلام العربي والإسلامي، يظهر في هلع بعض الأنظمة العربية الإسلامية من إشاعة الأفكار التحررية والديمقراطية وما قد تحدثه من ثورة على النظم السلطوية الاستبدادية، وسحب البساط من تحت أقدامها، وتقويض عروشها. ويبرز في هذا المقام الدور البناء الذي ينبغي أن يلعبه الإعلام الإسلامي في تبنى أوجاع العالم الإسلامي، من احتلال أراضيه، وتدنيس مقدساته والاعتداء على حقوقه كما في فلسطين والقدس والعراق، وحماية الأقليات المسلمة ضد الإبادة في الفلبين والهند وبورما وكشمير وكوسوفا، والشيشان والبوسنة حيث تتعرض هذه الأقليات للعنف والمهانة، لا لشيء إلا بسبب دينها، وإصرارها على إسلامها. وعلى الإعلام الإسلامي أن يطور نفسه، وأن يرسم خطه ويحدد أهدافه، ويعي خطورة مهمته، بما يمثله من خط الدفاع الأول، وصوت

الامة فى تحصين عقائدها، وبعث شخصيتها، وإبراز هويتها، والمنافحة عن قضاياها، والدعوة إلى الإسلام والتوعية به، وأن يتصدى للرد على حملات التشكيك والتشويه فى الإعلام الغربى، حيث تزخر العديد من وسائل الإعلام بالسموم والأباطيل، والتشكيك فى الإسلام، وطمس معالمه بأساليب مكشوفة، وألغيب مفضوحة، وهو ما سنعرض لنموذج منه مدحا وقدحا، وهو ما ينبئ عن الأسلوب الغربى فى طرح القضايا الإسلامية. إن الإعلام العربى الإسلامى مطالب بأن يساهم بالحلول الإسلامية والتصورات الإسلامية بشأن المشترك من القضايا التى باتت عالمية فى طبيعة محتواها، مثل البيئة والإرهاب والمخدرات والإيدز، وإنهيار الأسر والأخلاق وما على شاكلتها من المشكلات الضاغطة التى تؤرق العالم، والتى تحتاج إلى تضافر الجهود، وإيقاظ الضمير العالمى، وبالقطع فإن للإسلام موقفا ناصعا لبيت إعلامنا ينجح فى تقديمه للعالم، وبقينا فإنه سيساهم فى إيجاد العلاج لها، والحد من الآثار الضارة لها، وترشيد السلوك الإنسانى إزاءها.

* * *

نموذج واقعى لصورة الإسلام فى الصحافة الغربية

المقال الأول لمجلة الفيجارو

الإسلام والتسامح

(عدد السبت ٩ يناير ١٩٩٩م)

عرضت الصحيفة جزئين لكاتبين مختلفين

الأول: يشيد بمبادئ الإسلام وسماحته

جاء فيه : إن الإسلام يدعو للتسامح والتأخى بين الديانات كما يؤكد القرآن فى ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٦]. وهى الآية : ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۗ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ۚ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِرْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٦].

وإن كل تجاوز أصولى مرفوض: الإسلام هو (المجتمع الوسط) يدعو الإسلام الناس كافة للتسامح والتصالح، وينشئ الإنسان على تعاليم التسامح والعفو عن المنكر وعلى أخلاق الفضيلة الإسلامية: مثل الآيات التى تدعو الإنسان إلى «دفع الأذى بالحسنى» [سورة يوسف: الآية ٣٤، سورة المؤمنون: الآية ٩٦، وسورة يوسف: الآية ٢٢]. تصور قيمة تلك المفاهيم فى الإسلام.

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ ۗ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٤٣].

﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرُءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ [سورة الرعد: الآية ٢٢].

﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ ۗ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾ [سورة المؤمنون: الآية ٩٦].

حتى فى أقصى حالات الدفاع عن النفس، فإن هذه النصوص لا تقبل العنف المبالغ. وبقية القرآن قوانين تهدف إلى الحفاظ على القيم الإنسانية والتسامح حتى فى أقصى الحالات كما تنص عليه الآية التى تدعو المسلمين فى وقت الحرب إلى الأخذ فى حماية أى عدو لهم يطلب النجدة.

وهى الآية: ﴿ وَإِن أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ اتَّقِ اللَّهَ مَا آمَنَهُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة التوبة: الآية ٦]

وهذا المقال يمثل معالجة موضوعية ومنظورا نموذجيا للإسلام من واقع نصوصه ومواقفه وهو تصوير جدير بترسيخ قيم التعايش والتسامح بين الحضارات والثقافات، والبحث عما هو مشترك لتتعاون فيه والبعد عن التصادم والتشاحن لتكريس التعايش الأمى فى ضوء الاعتراف بالتعددية وعلى حد التعبير الأصولى: اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد وهو ما يجدر معالجة الخلافات الثقافية والأيدولوجية بين الدول وفقا له.

أما المقال الثانى المعارض لفكرة تسامح الإسلام:

فقد تناول ما يلى :

إن المدافعين عن الإسلام يشيرون دائما إلى آية (الحق وانتصر الباطل). [سورة البقرة: الآية ٢٥٦].

كان يعنى الآية ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِرْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٦].

وليس الآية: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٧].

إلا أن أغلب الغربيين، والذين لم يقرأوا القرآن لا يستطيعون فهم مدى المغالطة والاحتتيال الذى يتضمنه هذا الادعاء.

فنعتقد (كغربيين) أن القرآن كتاب مقدس يمكن فهمه انطلاقا من نفس مفاهيم الإنجيل، إلا أن هذا غير صحيح، فإن القرآن فيه آيات تم إلغاؤها (المنسوخ) وآيات التلى أخرى (الناسخ) وإن أكثرية الآيات من النوع الثانى فمن أصل ١١٤ سورة، فإن هناك ٤٣ فقط ليس بها ملغى أو لاغى.

وإن هذا الأمر يدعو بطبيعة الأمر للدهشة وغير متوقع من الغربيين الذين لا يعلمون أن جزءا مهما من القرآن قد ألغيت آياته بأخرى، وأن

المعاصرين لمحمد ﷺ كانوا أيضا مدهوشين بهذه الهندسة المتغيرة.
فكيف يمكن معرفة عندما تتناقض سورتين أى السورتين يتم الغاؤها
وأيهما هو الذى أصح ولاغى للآخر؟.

إن الموضوع موضوع تاريخ وإن الأخيرة تلغى كل ما يسبقها والتي
تعد مخالفة لها وإن النصوص المتسامحة خاصة بشأن غياب الإكراه فى
الدين يأتى فى سورة البقرة التى هى مكية، وإنها إحدى أقدم السور
فى وقت كان الإسلام أقلية وكان محمدا ﷺ مهتدا بالقتل وإن التسامح
كان يتم تقديمه على أنه أمر من الله لأن ذلك كان ضروريا للإسلام فى
نشأته ولكن عندما قوى الإسلام وأصبح قادرا اختلقت اللهجة وإن الآية
الاکثر عنفا هى تلك المعروفة باسم آية السيف [سورة التوبة: الآية ٢٩]
وهى الآية: ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ
مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى
يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ [سورة التوبة: الآية ٢٩].

كما أن إحدى أهم مصادر الإيمان الإسلامى هو الإجماع بمعنى التوافق
وإن هذا المصدر هو الحديث الذى ينسب إليه قول محمد ﷺ "إن أمتى لن
تنفق أبدا على الخطأ [أبو داود ٣٤ ، ١ الترمذى ٧ ، ٣١ وابن ماجه ٨ ،
٣٦] وإن واقع الأمر أن اللجوء إلى العنف المسلح كأسلوب شرعى من أجل
نشر الإسلام وإنه يحظى بالإجماع بين كل المشرعين والأساتذة المسلمين.
وإن الادعاء بأن الإسلام يمكن أن يكون معتدلا قائما على أن عملية
احتتيال فى ثلاث جبهات. على الأقل:

• تخفى عملية إلغاء للآيات المتسامحة.

* تخفى أن محمد ﷺ هو النموذج الجميل وإن أعماله يجب أن تتبع ، بينما فى واقع الأمر هو الذى نشر الإسلام بحد السيف واعتمد القتل المبرمج لكل الذين رفضوا اعتناق الإسلام أو كانوا يعارضون أفكاره. * كما انها تخفى أيضا مصادر الإيمان فى الإسلام بشأن انتهاج العنف. إننا نغفل الغرب فى كثير من الأحيان أن محمدا ﷺ كان رئيس الحكومة وقائد جيش وشرطة وزعيم دينى فى آن واحد ، وإنه يبقى «النموذج الجميل» كيف يمكن التخيل ألا تستعين السياسة بالسند الدينى ، كما أنه يصعب التصور ألا يستعين رجل الدين بالطرق السياسية التى تتاح له وإنه فى هذا الوضع يصعب تفادى الديكتاتورية.

* * *

مغالطات مقالة صحيفة الفيجارو الفرنسية التي تعارض فكرة التسامح فى الإسلام

نسب المقال إلى المدافعين عن الإسلام وتسامحه تجاه المخالفين فى الدين، إنهم يلجأون إلى المغالطة والاحتتيال، ذلك أنهم يستندون فى دعواهم إلى الآية ٢٥٦ من سورة البقرة: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

ومع أن الآية قد نقلت خطأً فإنها تقرر صراحة حرية اعتناق الدين بوازع من الاختيار والإرادة الصحيحة الخالية من الإكراه والجبر، فإن صاحب المقالة ينسب القارئ الغربى إلى أنه لا ينبغي فهم القرآن انطلاقاً من نفس مفاهيم الإنجيل، فإن مثل هذا الفهم غير صحيح، ويعزو ذلك إلى أن أكثر سور القرآن تضمنت آيات ملغية (منسوخة) وعلى حد زعمه فإنه يوجد ٤٣ سورة فقط لا تشتمل على إلغاء أو نسخ من أصل ١١٤ سورة هى مجموع عدد السور التى اشتمل عليها القرآن، الأمر الذى يعنى أن تلك الآية التى تنفى الإكراه فى الدين داخله فى جملة الآيات الملغية (المنسوخة) ومن ثم فلا يعول عليها فى تقرير حرية العقيدة فى الإسلام. والواقع أن كاتب المقال قد زيف الحقيقة فى ادعائه هذا، فيما يتعلق بوضعية الآية التى استشهد بها المدافعون عن الإسلام أو بشأن

مسألة الإلغاء أو النسخ التي أطلقها بدون تمحيض ولا تدقيق، وإنما ساقها للتدليل على رأيه دون سند ولا برهان.

فيما يتعلق بآية: لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي.. "فإن هذه الآية بألفاظها ومعناها، هي من محكمات القرآن التي لا يثور الشك حول مدلولها في تقرير حرية العقيدة، وأن هذه الحرية هي أصل من أصول الإسلام، وقاعدة دينية كبرى من قواعده التي ينبغي على الفرد والدولة في الإسلام أن تلتزم بها، ويتعامل المسلمون مع الخالفين في العقيدة على أساسها فردا كانوا أو جماعة.

يبرهن على صدق هذه الحقيقة، أن هذه الآية ضمن سورة البقرة والسورة جميعها نزلت في المدينة، وكان للإسلام آنذاك دولة وقوة واعتراف من الآخرين، ولم يكن ضعيفا بحاجة إلى أن يتودد إلى المخالفين يخضع لهم، فقد كان مصيره يقرره بنفسه دون خوف سطوة الأعداء فالثابت أن هذه الآية نزلت في غزوة بنى النضير التي كانت في السنة الرابعة للهجرة بعد غزوة بدر الكبرى التي انتصر فيها المسلمون على قريش، في الوقت الذي نقض فيه بنو النضير المعاهدة التي أبرموها مع النبي ﷺ. بعد أن كادوا له وخططوا لاغتياله مرتين وهم الساكنون بجواره في المدينة، فلم يكن له بد إلا إجلاتهم عن المدينة، فلما أجليت بنو النضير كان فيهما بعض أبناء الأنصار الذين يعتنقون اليهودية فأراد هؤلاء الأنصار إكراه هؤلاء الأولاد على الإسلام فنزلت آية: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾.

وروى أيضا أن رجلا من الأنصار يقال له الحصين كان له ابنان نصرانيان وكان هو مسلما، فقال للنبي - ألا استكرههما فإنهما قد أبيا إلا النصرانية؟ فأنزل الله الآية:

ومفاد ذلك أن القرآن يقرر حرية الاعتقاد، ويحظر الإجبار على اعتناق الدين، غاية الأمر أنه يجعل واجب المسلمين أن يدعوا لدينهم، وأن يعرضوا مبادئه للناس وكل إنسان صاحب حق في أن يختار الإسلام أو المسيحية أو اليهودية أو أى دين آخر. وقد رسم القرآن منهج الدعوة إلى الإسلام بقوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [سورة النحل: الآية ١٢٥].

وقد يقال إن القرآن احتوى على العديد من الآيات التي تقرر الجهاد ضد الكافرين والرد على ذلك في كلمة أن الجهاد تقرر حماية لحق اختيار الإسلام، وحماية لحرية العقيدة، ضد المعتدين عليها، وضد الفتنة في الدين تجاه ضعاف الإيمان، ورد العدوان على الوطن الإسلامي، وحروب الرسول ﷺ من واقع استقراء التاريخ، تدل على أنه لم يقاتل المخالفين في الدين إلا لأمرين: إما اعتداء سابق وقع من المشركين، وإما بسبب منع الحكام الرسول والمسلمين من الدعوة للإسلام، وسعيهم نحو فتنة المسلمين وردهم عن دينهم. ولنا أن نتساءل هل أكره الرسول ﷺ مشركي قريش على اعتناق الإسلام عند فتح مكة؟ بعد أن دانت له بأرضها ورجالها، وكان في قمة العزة والنصر وقال قولته الشهيرة: لا تثريب عليكم، اذهبوا فأنتم الطلقاء وهو ما يؤكد على أن العلة في الجهاد ليست المخالفة في الدين، وإنما الأمر عدواني يهدد الإسلام ووطنه وأهله.

ادعاء نسخ الآيات

أما عن مسألة إلغاء الآيات والسور (النسخ) مع التسليم بوجوده فى كل التشريعات والقوانين، إلا أن رؤية الإسلام له تتمحور فى وضعيته فى المنظومة التشريعية الإسلامية، وفى مفهومه فى هذا السياق، وتجلية الصورة برمتها يجعلنا نثبت الحقائق التالية.

أ - أن النسخ يقع فى الفروع والجزئيات، لا فى الأصول والكليات وعليه فلا يجوز الإلغاء لمبدأ كلى جوهرى فى الدين مثل التوحيد ووحدانية الله، والإيمان بكل الأديان السماوية والرسل جميعا، وحرية العقيدة، وحماية الدين والنفس والعقل والمال والعرض.

ب - أن الإلغاء (النسخ) استثناء فى الإسلام، وليس أصلا فى الفروع والجزئيات، لسبب بسيط وهو أنه لو كان أصلا يعمل به لأدى ذلك إلى هدم الدين، وتعطيل الشرائع، وتقويض النصوص، والتشكيك فى المنظومة التشريعية كلها، كما يقصد كاتب المقال بزعمه أن أكثرية الآيات والسور فى القرآن ملغية.

ج - أن الآيات الملغية فى القرآن، هى آيات قليلة تعد على أصابع اليد الواحدة مثل نسخ الصلاة تجاه بيت المقدس، وحبس الزانية فى البيت، وتقديم صدقة عند مناجاة الرسول، وقد تم استبدالها بأحكام أخرى فى القرآن بالصلاة تجاه الكعبة، وعقوبة الجلد على الزانية، والإعفاء من تقديم صدقة عند مناجاة الرسول. وهذه هى المواضع التى اتفق العلماء على وقوع النسخ فيها. فأين هذا من إطلاق الكاتب دعوى الإلغاء، لقد كان حريا به أن يراجع أقوال العلماء فى الإلغاء (النسخ)

قبل أن يعمم القول، ويدعى بغير سند، ويتجنس على أصول المنهج العلمي الذي يؤسس القضية على البرهان.

د - أن الإلغاء أو النسخ في الإسلام يكون بقصد التخفيف على المخاطبين بالأحكام الشرعية، أو تحقيقا لمصلحة دينية أو اجتماعية عامة، وأخذا في الاعتبار لكل الأحوال والأزمنة والأشخاص، فهو منضبط بالضوابط الشرعية وبمقاصد الإسلام وأهدافه العليا في الحياة.

هـ - أن مفهوم الإلغاء (النسخ) الواقع في المنظومة الإسلامية القرآن والسنة الإجماع، يشتمل على إبدال حكم مكان آخر، ابتغاء تحقيق مقصد ديني أو اجتماعي أو تخصيص حكم جاء عاما أو تقييد حكم ورد مطلقا، أو تفصيل ما ذكر مجملا، إلى غير ذلك من الأغراض التشريعية في البيان والتفسير، التي تجعل النصوص التشريعية جلية في مبناها ومعناها ليسهل على المخاطبين الإلتزام بها، والعمل بمقتضاها. وعلى الرغم من كل ذلك، لم يفتن كاتب المقال إلى المفهوم الحقيقي للإلغاء (النسخ) ولم يحرر مصطلحه، وهو أمر في غاية الأهمية لدى المشتغلين بالدراسات الشرعية والقانونية، فإن الواجب الأساسي لمن يتصدى لمثل هذه القضايا أن يقوم بتحديد المفاهيم على وجه دقيق.

وبناء عليه، فإن ما ساقته الصحيفة من مزاعم صكت بها مسمع القارئ الغربي من أن جزءا مهما من آيات القرآن أُلغيت بآيات أخرى، وأن المعاصرين لمحمد ﷺ كانوا أيضا مدهوشين بهذه الهندسة المتغيرة، هو تحريف للإلغاء (النسخ) شكلا ومضمونا، وافتئات على الحقيقة القرآنية والواقع التاريخي، لأن القرآن كتاب مقدس أحكمت آياته،

وجاء خاليا من التعارض والتناقض ومتكاملا فى هندسته من حيث النظم والمعنى ، ويتجلى ذلك فى تحدى القرآن للكافرين فى أن يأتوا بآية مثل آياته وعجزهم الذريع والمتكرر فى محاكاته ، وتسليمهم بهذا الإخفاق والعجز ، وإشادة أقطابهم – الوليد بن المغيرة – بآيات القرآن وهم أرباب الفصاحة وأساطين البلاغة .

ثم نتساءل مع الكاتب ، هل تفرز الهندسة المتغيرة ، كل هذه الحقائق الإيمانية والاجتماعية والتاريخية والعلمية ، التى عضدتها وشهدت بها المعارف الحديثة؟ وهل تقارن كم المعارف الصحيحة فى شتى المجالات التى جاء بها القرآن مع ما ورد من معارف فى التوراة .

أما بالنسبة لما يدعيه الكاتب بخصوص أن آية النهى عن الإكراه قد وردت فى سورة البقرة ، وهى مكية ، وأنها نزلت فى وقت كان الإسلام أقلية ، وكان الرسول مههدا بالقتل ، فإن هذا القول عار عن الصحة ، شكلا ومضمونا فإن سورة البقرة مدنية وليست مكية والإسلام لم يكن وقت نزولها أقلية ، وإنما كان دينا يغزو القلوب والعقول بمبادئه الدينية ، وحثه الدافعة ، وخطابه الإنسانى المتوازن للروح والمادة والعقل والوجدان ، فى الوقت الذى كان للمسلمين مجتمع ، وللإسلام ، ووطن ، وصاغ دستور دولة المدنية التى عاش فيها المسلمون واليهود والوثنيون فى سلام ووثام . ولم يكن محمد ﷺ مههدا بالقتل وإنما كان هو الذى يصنع الأحداث ويوطد أركان الدولة ويدعو للإسلام على بصيرة وهدى . والمضطلع على آيات سورة البقرة ، يجد أنها تحتوى على العديد من التشريعات الخاصة بالأحوال الشخصية والمعاملات المدنية

والجنائية والعلاقات الدولية، فهي تنظم أحوال المجتمع المدني، لأنها أطول سورة في القرآن.

وبمضى الكاتب في جملة العداثية ضد الإسلام وكتابه المقدس القرآن، فيقول إن الإسلام عندما أصبح قادرا اختلفت اللهجة، واستدل على ذلك بما سماه بآية السيف في قوله تعالى: ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ [سورة التوبة: الآية ٢٩].

والملاحظ على الآية أنها تتحدث عن ضعف معين من أهل الكتاب، هم ذلك النفر الذي تورط في أربع صفات سلبية لا تتناقض فقط مع القرآن، وإنما تتناقض كذلك مع التوراة والإنجيل، هذه الصفات تتنافى مع أصول الإيمان في الأديان الثلاثة اليهودية والمسيحية والإسلام، وهي عدم الإيمان بالله واليوم الآخر، وكونهم لا يحرمون الأمور التي حرّمها الله ورسوله المبعوث فيهم، ولا يدينون دين الحق لأن حقائق الأديان الثلاثة تنبع من مصدر واحد، وتهدف إلى غاية واحدة، وهي عبادة الله الواحد وإرساء العدالة، والأخوة الإنسانية وعمارة الكون. فإذا أضيف إلى ذلك أن هذا الضعف من أهل الكتاب، وليس كل أهل الكتاب بدلالة الآية: ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ فهي تدل على البعض لا الكل، يعيشون داخل دولة الإسلام ويعيشون المسلمون والأديان، في دولة تتأسس هويتها على الإيمان بالله الواحد والأديان السماوية جميعا، والرسول بلا تفرقة بينهم والملائكة واليوم الآخر، وتحل الحلال

وتحرم الحرام وهو الأمر الذى من شأنه أن يقوض الأساس العقائدى فى اليهودية والمسيحية والإسلام، ولو التزم هؤلاء بتعاليم اليهودية والمسيحية بحقائقها الدينية الحقّة لالتزموا بالإسلام ولم يخرجوا على شعائره ونظامه.

إذا علم ذلك، صح القول بأن العلة فى قتال هؤلاء النفر من أهل الكتاب، هو وقوعهم فى هذه المعاصى، وانتهاكهم لمقررات الأديان، وليس العلة كونهم من أهل الكتاب، واعتناقهم ديناً آخر غير الإسلام. فإذا انتقلنا من الوقوف على علة القتال المشروطة والمقيدة بارتكاب أهل الكتاب لهذه المخالفات، إلى تحرى علة إعطاء الجزية، وقد جعلت غاية فى الآيّة، لقتال الحاملين لراية العصيان على الإسلام وأهله من أهل الكتاب، فإن الجزية إنما تجب بديلاً عن الحماية والنصرة، حيث إن الدولة الإسلامية ملزمة بالدفاع عنهم ضد أى اعتداء داخلى أو خارجى تقابل التزام المسلمين بدفع الزكاة فكل منهما واجب اجتماعى دينى، لكى ينتظم كيان الدولة، وتتوازن الواجبات بين رعاياها.

وقد ذهب بعض الفقهاء إلى أن علة وجوب الجزية على أهل الكتاب، هى حماية المسلمين لهم ودفاعهم عنهم، وليس الخلاف فى العقيدة هو ما يوجب على المسلمين أن يسقطوا عنهم الجزية إذا لم يقوموا بالدفاع عنهم، وهو ما حدث بالفعل من أبى عبيده بن الجراح عندما أمر قواد جيشه بأن يردوا لأهل الكتاب ما أخذ منهم من جزية عندما لم يستطع المسلمون أن يدافعوا عنهم ضد هجمة الروم بسبب الجموع الحاشدة التى عبئوها ضد الدولة الإسلامية بما فيها

من المسلمين وأهل الكتاب ، وقد أدى هذا الموقف إلى القول بأن أهل الكتاب إذا اشتركوا مع الجيش المسلم فى قتال العدو سقطت عنهم الجزية ، بناء على القاعدة الفقهية : الأحكام تبنى على العلة وجودا وعمدا ، فإذا وجدت العلة وجد الحكم ، وإذا انتفت العلة انتفى الحكم . هذا التوضيح للنص الذى وصفه الكاتب بأنه الأكثر عنفا ضد أهل الكتاب يكشف عن انحيازه ضد الحقيقة ، وتنكبه عن مناهج التفسير الصحيحة للنصوص ، وعزل النص عن سياقه ، وتأويله وتأويلا سقيما ، واجتزاء بعض النص ، وفصله عن بقية التركيب ، والوحدة العضوية له وفى سياق مسلسل الهجمة على الإسلام ، يزعم أن أسلوب العنف يحظى بالإجماع بين كل المشرعين والأساتذة المسلمين . وهذا الكلام يتضمن فرية أخرى على الإسلام والمسلمين ، فإن الإجماع هو اتفاق وليس توافق المجتهدين فى الأمة على حكم شرعى .

ناهيك عن أن ما يقوله الكاتب يخالف نص القرآن والسنة ، فلا يوجد إجماع بالمرّة حول العنف المسلح ، بل احترام للمواثيق والمعاهدات ، والاعتصام بالسلم ما وجد إلى ذلك سبيلا ، ونصوص القرآن متضافرة حول الدعوة للسلم ، وسلوك طرقه مثل قوله تعالى : ﴿أَدْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٠٨] ، وقوله : ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [سورة الأنفال: الآية ٦١] . وقوله : ﴿فَمَا اسْتَقَمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ [سورة التوبة: الآية ٧] . فمن أين استقى الكاتب هذا الاجماع ، وما هو مصدره؟

ويبرز الكاتب فى ختام مقالته جوانب الاحتيال - بحسب ادعائه - فى الخطاب الإسلامى ، ملخصا لها فى ثلاثة :

- إخفاء إلغاء (نسخ) الآيات التي تدعو إلى التسامح.
- إخفاء أن محمدا هو الذى نشر الإسلام بالسيف واعتمد القتل المبرمج لكل الذين رفضوا اعتناق الإسلام.
- إخفاء المصادر الداعية إلى انتهاج العنف.
إن نقطة البدء فى جملة الخطايا التي وقع فيها الكاتب، إنه اعتمد الخطاب الغربى الشائع عن الجهاد - الحرب المقدسة - فى الإسلام والموروث التقليدى المعادى للإسلام فى الغرب، وحاول أن يلبس هذه الأغاليط مسوح الحقيقة، وما هى من الحقيقة بشىء، فوجد فى فكرة الإلغاء (النسخ) ضالته المنشودة، فما كان منه إلا أن عدد الإخفاءات الثلاثة التى سردها توا.

وفى هذا السياق ننبه على حقيقة أن إلغاء الآيات الداعية إلى التسامح لم تقم إلا فى رأسه هو، فأيات القرآن جميعا الداعية إلى الجهاد، أو الداعية إلى التسامح، هى آيات محكمة، يجب العمل بها فى موضعها، فالجهاد مع الأغيار، إنما يكون ضد أعداء الإسلام، الراغبين فى استئصاله، الناقضين لعهودهم مع المسلمين، المعتدين على الأرض الإسلامية، المستلبين لحقوق المسلمين، والمغتصبين لها، والجهاد هنا يكون لاستبقاء الإسلام عزيز الجانب كدين إنسانى بحافظ على القيم والكرامة الإنسانية ويدعو إلى التعايش الآمن مع المخالفين، ولتأصيل الوفاء بالعهود، ولإستعادة الأرض السلبية، ولحماية حق المسلم فى إسلامه وكرامته، وهو ما نربأ بالحضارة الغربية الحديثة بكل رصيدها أن تنكرها على الإسلام والمسلمين.

وبجانب ذلك فإن الآيات الداعية إلى التسامح هي نصوص محكمة لم تنسخ (تلغ) وإنما هي باقية يجب العمل بها مع من لا يتآمرون على الإسلام ومن لا يفتلون حقوق المسلمين، وينبغي على المسلم أن يتعامل بها مع الناس إذ إنها جزء من عقيدة المسلم، وتعبّر في نفس الوقت عن قيم الإسلام وعطائه للإنسان، وليست هذه الآيات التي تعتمد منهج التسامح قاصرة على الفترة المكية، وقت أن كان المسلمون قلة، فإنها موجودة وقائمة في الفترة المدنية، فالآيات الداعية إلى السلم في سورة البقرة وقد أوردناها في سورة مدنية وكذلك آية سورة الأنفال عن الجنوح - الميل للسلم - وهي سورة مدنية، فكيف يختزل الكاتب الإسلام في العنف وقتال المخالفين في الدين، ويبدد كل مسعى للتفاهم والتعايش مع المسلمين بدعواه بنسخ حرية العقيدة والتسامح تجاه غير المسلمين؟ وكيف يدعى أن الإسلام انتشر بحد السيف وأن الرسول محمدا هو الذى قام بذلك وأنه اعتمد القتل المبرمج؟ لقد كانت حروب الرسول دفاعا عن دين الله، فى مواجهة هؤلاء الذين تربصوا لقتله وطرده من وطنه وألبوا عليه الآخرين، وحاربوه بكل الأسلحة الحربية والاقتصادية، والاجتماعية، عندما تأمروا على قتله وطارده حتى نجاه الله منهم، وقد قاطعوه اقتصاديا، وامتنعوا عن معاملته ومن معه من المؤمنين ببيعا وشراء، وزوجا حتى يختنق وتموت دعوة الإسلام من الحصار، وهم الذين حشدوا الجيوش فى سلسلة الغزوات العديدة، بغية استئصال شأفته، ولكن أراد الله أن ينتصر الحق والفضيلة على قوى الباطل والبعى، فهل يقال إن دفاع محمد عن دين الله وعن نفسه والمؤمنين قتلًا مبرمجا، وفرضا وإكراها للآخرين على اعتناق الإسلام؟

لقد انتشر الإسلام بقوة سلطانه على النفوس، والقيم الإيمانية والإنسانية التي يحملها، ووصل إلى أراض بعيدة سلما كما هو الشأن في الهند وجزر الملايو وأندونيسيا وغيرها بانتهاج الحكمة والمعاملة الحسنه مع غير المسلمين، عن طريق العلاقات التجارية التي كانت تعبيرا حضاريا عن نموذج الإسلام كنتيجة للفتوحات الإسلامية، بسبب مقاومة حكومات هذه البلدان للإسلام، وعدم إتاحة الفرصة للتعريف بالإسلام، والاضطلاع على مبادئه الإيمانية والحياتية، وهو ما يبدد وهم أن الإسلام قد انتشر بحد السيف ويكشف عن الأغاليط الكثيرة التي أوردها هذا الكاتب وغيره من الذين يعمدون إلى تشويه الإسلام ووأد حقائقه.

* * *

التقرير الأمريكى المشبوه عن الحريات الدينية

أصبح مألوفاً فى التقارير الدولية عن الحريات الدينية التى تسطرها لجان وهيئات أمريكية معنية برصد ومتابعة حالة الحريات ألا يعبا صانعوها بما يجب أن تلتزم به من الشفافية والحييدة خاصة فى القضايا الإسلامية التى تجرى أحداثها فى العالم الإسلامى ، فالحاصل أن تتبنى هذه التقارير معايير مزدوجة ، لتحقيق أهداف ومقاصد تصب فى خدمة السياسة الأمريكية ، ومكمن الخطورة فى هذا المسلك هو التزييف فى الأمور الدينية بما لها من طبيعة مقدسة ، ونموذج ذلك تقرير الحريات الدينية الصادر عن لجنة الحريات الدينية الأمريكية لعام ٢٠١٠م ، وما احتوى عليه من أغاليط عن الحالة الدينية وحرية العقيدة فى مصر.

فقد حفل التقرير فى مجموعته على مدى ١٧ صفحة من إجمالى عدد ٢٠ صفحة ، على إيراد وقائع تبرز تكريس حالة الفرقة وانتهاك المواطنة ، وتمزيق النسيج الواحد ، والإخلال بمبدأ المساواة بين أبناء الجماعة المصرية.

ويعجب المطلع على التقرير من طمس القسّمات والملامح المميزة للجماعة الوطنية فيما آلت إليه الأوضاع المجتمعية فى مصر ، من تفسخ وتشردم وهو ما يرسخه الأسلوب والمنهج ، فليس الاختلاف ناشئاً فى نظر التقرير عن تعددية طبيعية داخل المجتمع المصرى ، عاش عليها

المصريون عبر أزمان وقرون في نموذج وحدوى وتماسك اجتماعى ، ومرتكز عقدى إيمانى يجمع بين المسلم والمسيحى فى وطن متآلف ، وقواسم مشتركة ومصلحة مجتمعية كما أثبتته حقائق التاريخ ، وإنما طائفية ومواجهة أفرزت الاستنفار والتربص والانقسام الذى صار إليه المجتمع ، وهذا ما يلمسه بجلاء ما ضمنه التقرير من وجود ممارسات تنطوى على تمييز وأعمال قمعية ضد المخالفين للأغلبية المسلمة ؛ فقد حشد التقرير الإشكالية عمليات التمييز والاضطهاد من الحكومة والرأى العام الضد حرية العقيدة ، وحق ممارسة الشعائر لأبناء الوطن ، ممن يشكلون بنيته المجتمعية ، فوفق منظور التقرير يتشكل المجتمع المصرى من جماعات الشتات مسلمين سنيين وشيعة ، ومسيحيين وبعض اليهود والبهائيين ، يصورهم كجزر منعزلة يتطاحنون فيما بينهم ، ويندفعون نحو الشقاق وسياسة الإقصاء وفرض الأيدولوجية الأحادية ، والاتجاه إلى تفكيك بنى الجماعة ، وضرب وحدتها التى انطبعت عليها الجماعة الوطنية ، وكان شاهدا عليها الدولة المركزية منذ عهد مينا موحد القطرين .

ولم يكن الفتح الإسلامى لمصر إلا تأكيدا لهذا التوحد ، وإرساء لقيمة التسامح بين المسلمين والمسيحيين من أقباط مصر ، انصهر فيه الفاتحون المسلمون الذين لا يزيد تعدادهم على الثمانين ألفا على أقصى التقديرات ، فكانوا عنوانا على الأمان المجتمعى ، واعترافا بالتعددية الدينية حصنا للجماعة كلها يربط بينها الصالح العام والتعايش المشترك ، وإن اختلف الدين .

لكن التقرير يأبى إلا أن يؤكد على الشقاق فى بنية المجتمع ، حيث تتناثر الجماعة ويصارع بعض عناصرها البعض الآخر، سواء فيما بين المسلمون فهم فرق متصارعة تتوزع إلى أهل سنة وشيعة وقرآنيين وأحمدية وبهائية ، أو فى الخلاف الحاصل بين الكنيسة الأرثوذكسية والكنائس الأخرى، وشهود يهوه، على النحو الذى يقوض بنية المسيحيين كذلك ، نتيجة الخلافات والصراعات التى توجد بين هذه الطوائف.

وأن التقرير بهذا التصوير الذى أوردته للجماعة الوطنية، يعيد اكتشاف الجماعة المصرية فى محنتها، فهو يجعلها متنافرة يتعذر إقامة المجتمع الواحد بين عناصرها ويورد التقرير صورا من الممارسات التمييزية ضد المسلمين وغير المسلمين، فالبهائيون لا تعترف الحكومة بالحالة المدنية عند زواج بعضهم البعض، فلا تصدر لهم الوثائق الرسمية، وتنكر عليهم الخصوصية فى الأحوال الشخصية وهو ما يسبب مشكلات لأولادهم بالنسبة للتمتع بحقوق المواطنة فى التعليم والوظائف العامة. ويتناسى التقرير الأسباب التى أدت إلى هذه الأوضاع الغريبة، وأسلوب المعالجات الأمنية فى التعامل معها حتى أوجدتها بحكم ممارسات النظام السابق، على حساب هوية المجتمع والنظام العام الذى يجب احترامه وعدم الخروج عليه فى كل الدساتير والأنظمة السياسية والمدنية، ولا يجوز تحديده والانقلاب عليه باسم الحرية المنفلتة.

وفى هذا السياق، فإنه لا خوف على أى مواطن فى الدولة الإسلامية فى الحصول على حقوقه الأساسية ومنها التعليم العام والصحة وغيرها

من المقومات إعمالاً لقاعدة: "لهم مالنا وعليهم ما علينا". لكن لا يجوز تغيير الهوية والنظام العام، باسم حق المواطنة لكل أفراد المجتمع، ذلك أن مبدأ الأغلبية في صنع القرار وتنفيذه مبدأ ديمقراطى تنادى به وتسير عليه النظرية الأمريكية والغربية.

وبخصوص ما أشار إليه التقرير من التضييق على الشيعة والقرآنيين والأحمديين من الجماعات الإسلامية فإنها إفراز المعالجة الأمنية التى اتبعتها النظام السابق فالتعامل يجب أن يكون وفق سيادة القانون والوعى بأن إفراز هذه الجماعات منشؤه فهم خاطئ للإسلام يسعى إلى الطائفية والتحزب فى الدين الإسلامى، وهو انحراف عن المبدأ الإسلامى الذى يعتصم بالوحدة الدينية للمسلمين جميعاً وينهى عن تفسيرات خاطئة قادت إلى وجود جماعات أشبه بالميليشيات الدينية، وهو ما يناقض قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٥٩]. وبالوحدة الوطنية: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾ [سورة آل عمران: الآية ٦٤]. ومصلحة الجماعة فى الانصهار بين مكونات الجماعة مهما تنوعت أفكارها.

ومن بين المغالطات التى حرص التقرير على إيرادها مسألة دور العبادة، والحظر المفروض على بناء الكنائس، والمصاعب التى يواجهها المسيحيون فى عمليات الترميم وصيانة الكنائس، وهذا النهى لا محل له فى النظر الإسلامى، لأنه فرع من أصل الحرية الدينية لغير المسلمين، وحق المسيحيين فى ممارسة شعائر الدين، فقد أمرنا بتركهم

وما يدينون، يشهد عليه رصيد العهود والمواثيق التي التزمت بها الدولة الإسلامية في ممارسة هذا الحق، كما حدث مع أهل نجران، ومع أهل إيلياء (القدس) وغيرهم، بل إن الرسول ﷺ سمح لوفد نصارى نجران بأداء الصلاة في المسجد النبوي.

كذلك فإنه على مستوى الدولة، تتجه حكومة ثورة ٢٥ يناير نحو إصدار قانون موحد وعادل لدور العبادة بديلا عن المرسوم بالخط الهمايونى الذى صدر عام ١٨٥٦م، كما أن الدولة قامت بفتح العديد من الكنائس المغلقة تمكينا للمسيحيين من ممارسة شعائرهم وهى بصدد تنظيم بناء الكنائس وأعمال الترميم وفق معايير عادلة وواقعية.

أما أعمال العنف الدينى فإن العلاج يقوم على أساس تطبيق صحيح القانون والتأكيد على سيادته ومساواة الجمع فى الخضوع له، بجانب الفعاليات الدينية من جانب الأزهر والكنيسة فى بيت العائلة لوأد الفتنة وتثقيف المسلم والمسيحى بصحيح الدين، وأصول التعايش فى ظلال السلام الاجتماعى. فما أورده التقرير بشأن حل العنف الدينى والفتنة الطائفية بواسطة جلسات الصلح مردود عليه غير مقبول.

تبقى مسأله تغيير الدين وتحويل بعض المسيحيين إلى الإسلام أو العكس، وهى مسألة شائكة وتندرج بفتنة لا يعلم مداها إلا الله تعالى، إن لم يتم معالجتها بحكمة وحسم وبغض النظر عن المبالغة فى عمليات الإكراه والتمييز ضد المسيحيين مما أورده التقرير، فإن هذا الملف يجب أن يعالج من خلال ميثاق الأخوة الدينية والوطنية بين الأزهر والكنيسة بما يفوت على المغرضين والمتلاعبين بحرمة الأديان والأوطان سوء

قصدهم ، وبما يؤكد على أن الدين جاء عن قناعة وإيمان حقيقي وليس لأغراض نفعية أو مقاصد دنيوية.

ويجدر أن يتحقق ذلك بوساطة تكوين لجنة مشتركة بين الأزهر والكنيسة ومشاركة بعض الشخصيات العامة والمجتمع ، وأن يكون النصح والإرشاد وتقدير شتى الأبعاد وضمان السلام الاجتماعى والوحدة الوطنية هو الطريق للتعامل مع هذه القضية ، والمهم هو إرادة التنفيذ للحفاظ على التعايش بين جماعة المؤمنين وهو ما يشيد صرح الدولة الموحدة.

إسلام لكل العصور بين الإنصاف والجحود

جاء الدين الإسلامي كختم لرسالات السماء، فكان ولا بد أن يكون جامعا للعقائد الإلهية مصححا للتصورات المغلوطة عن الإله الواحد الأحد، كاشفا عن أمثل الطرق لعبادة الله، وبما يليق بجلاله وكماله وبأن الوجود كله يدين له بالألوهية، فلا رب إلا الله ولا معبود سواه، وبأن الطريق إلى الهداية يكون باتباع نور الله الذي نزل به القرآن مصدقا لما بين يديه من كتب السماء صحف إبراهيم وزبور داود وتوراة موسى وإنجيل عيسى عليهم جميعا الصلاة والسلام.

خاطب الإسلام الإنسان في جميع الأرض للالتزام بالحق والرشاد، ليصحح المسالك الخاطئة وليطرح الأباطيل والأساطير التي طالما أضلت الناس وحجبتهم عن الله رب العالمين، فأيقظ عقله وضميره، وأقام عليه الحجة بأنه مالك الملك الحقيقي بالألوهية، منبع الأنبياء، وصاحب الكتب المقدسة، وأن البشر كلهم عباده لا تفرقة بين أحد وآخر، ولا تحكم ولا استعباد من بشر على بشر، وهكذا أرسى الإسلام للإنسان الحرية في أن يتفكر في الأمر ويتدبر البلاغ الإلهي، ثم يختار بعقله الواعي المتبصر طريقه الذي إذا تخلص من الهوى وصعد للفطرة المغروسة فيه، وعقل سر وجوده ومكنون نفسه وضميره، وتأمل في الكون حوله وما أبدع الله فيه من بحار ووديان، وشموس وأقمار، ونجوم

وأفلاك ، وليل ونهار ، وسماوات وأرضين ، وما أنعم الله به على الناس من مخلوقات نراها أو نخفى عنا ، فإنه حتما سيذكر أن كل ما فى الوجود ، هو نتاج العظمة الإلهية ، ومظهر القدرة الربانية : ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [سورة النمل : الآية ٨٨].

متى كان ذلك ، فقد أرشد القرآن إلى وحدة الرسالات الإلهية ، وأبان عن مصدرها ، وكفل كل السبل التى ترشد الإنسان إلى الاعتصام بالحق ، واختيار ما يحقق سعادته فى العاجل والآجل وأنه إذا تفكر فى نفسه التى بين جنبيه ، وفى الآيات الكونية من حوله ومظاهر الخلق والإعجاز وأعمل عقله ، فإنه حتما سيختار طريق الإيمان بالله لقيام الأدلة المبتوثة فى الوجود على طلاقة القدرة الإلهية ، ولأن الإنسان هو الكائن الوحيد المسخر له المخلوقات جميعا ، ويحمل مفاتيح إعمار الكون ، واكتشاف أسرار الصنعة الإلهية ، وإدراك دلائل إعجاز الخالق ، فإن واجبه على قدر الأمانة والمهمة التى خصه الله بها دون سائر المخلوقات . وسيرا على النسق الإلهى فى الدعوة إلى الرشد فى الحياة ، والعمران والترقى فيها ، فإن القرآن نبهه إلى طرح أسباب الخلاف والصراع والتوحد حول أصول رسالات الله ، والإيمان بالدين الذى جمع الأديان قاطبة والالتقاء على كلمة سواء وهى خطة الرشد التى دعت إليها الرسالات جميعا وأعلنها الأنبياء إلى أقوامهم وأمهم : ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [سورة هود : الآية ٦١].

لكن الغريب هو انقلاب إنسان العصر الحديث على طريق الرشاد والهداية ، وسلوك مسلك الغواية والضلال ، وارتداده عن داعى الحق

إلى أقسى أنواع الجاهلية ضلالاً وإلحاداً، ومحاربة لدين الله فى السر والعلن، واختصاص الإسلام بالجحود ونكران جوهره الإيمانى، وقيمه الإنسانية ووصفها بالتخلف والرجعية والقهر والعنف واللامعقول، حتى أحس هؤلاء الذين عبدوا المادة، وجمعوا المال، وتملكهم الغرور بسبب اكتشافهم لأسرار الكون، أنهم سادته، وأنه لا فضل إلا للعقل، فألهاوا العقل والمال فى وثنية جديدة، وصاروا يرددون أنهم لا حاجة بهم إلى الدين، فهو مخدر الشعوب، وأسير الغيبيات، وتعلق بالروحانيات، وكبت للنزوات والشهوات، ومضاد للطبيعة البشرية التى سيطر عليها الشح والهوى والرأى الجامح الذى لا تقف أهواؤه الطائشة عند حد، فقد صدق عليه قول الحق: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ أَخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشًّا فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ﴾ [سورة الجاثية الآية ٢٣].

وفى وسط هذه الأجواء التى تعلن الحرب على الدين، كان الإسلام هو النموذج والمقصود والمستهدف، على أساس من كونه الملاذ الأخير والحصن الصامد لدعاوى الإلحاد واللا دينية التى تحمل لواءها المدنية الغربية بما تملكه من إمكانيات علمية وتكنولوجية بلغت المنتهى قوة وفتكا، ونسيت أو تناست القدرة الربانية فى الإيجاد والعدم.

وها هى الحرب تشتعل أوارها بين الغرب والشرق الإسلامى، بهدف تركيع الشرق الإسلامى، وإسكات صوت الإسلام إلى الأبد، وإعلان أممه وشعوبه الاستسلام والخضوع لمدينته الغالبة وآلته الجبارة، فهو يرى فى الإسلام الخطر الأيدولوجى ويظن أنه فى جهاد دائم ضده لكرهية

دفيئة فيه لذلك، فهو يصبو أسلحته الفكرية والعلمية والعسكرية إلى الشعوب المسلمة التي بلغ بها الهوان والضعف مبلغه. ولولا بقية من إيمان بالله، والتفاف حول دين الله، والاعتصام بالقرآن والرسول، والمشيمة الإلهية لما أبقى الغرب على هذا الدين، لأن أتباعه المسلمين تمسكوا بالشكل والطقوس، ولم يترجموا حقائقه ومصادر قوته إلى واقع معيش، فقد تخلوا عن جوهر الإيمان من العمل المتقن، والعلم النافع، والعقل البصير بسنن الكون ونواميس التقدم، فكان ما كان من هذه المعضلة التي أفرزت مسلمين بلا إسلام كامل وحقيقي، فقد غيبوا جوهره، واحتفظوا برسمه، وعطلوا مصادر قوته، وغير المسلمين، عقلوا النواميس والسنن بالعلم والعمل، وانفصلوا عن الدين وأرادوا اقتلاعه، وشهروا أسلحتهم لمهاجمته، لأنهم يتصورون أن في نهضة الإسلام زوال قوتهم ونهاية حضارتهم.

وليس الإسلام على هذه الشاكلة، فهو دين يدعو إلى المدنية والحضارة المؤسسة على الإيمان، أقام صرح حضارته على العلم واعتبره السبيل لرفعة الأمة: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [سورة المجادلة الآية ١١]. وعلى العمل، وهو وسيلة الارتقاء إلى الدرجة العليا: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا ^{بِط} وَلِيُوفِّيَهُمْ ^{بِط} أَعْمَلَهُمْ وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ﴾ [سورة الأحقاف: الآية ١٩]. فالمسلك الذي تبناه الغرب لبعث نهضته بالعلم والعمل يوافق منهج الإسلام بحسابه أنه من الفرائض فيه، لكن ينقص العلم والعمل أن يكون منبعه الإيمان بالله تعالى خالق كل شيء. بينما اكتفى الشرق المسلم بالإيمان الشكلي وانهزم في مجال تحصيل

العلم والعمل ، فأنتج هذا الصراع العالمى ، مما يتوجب معه أن يستكمل كل طرف عوامل النقصان لديه ، لإمكان التعايش فى سلام وأمان ، فهل يستجيب الطرفان لداعى الحق الذى يطلبه الإسلام؟!

* * *